السنن التاريخية وآفاق المستقبل
(دراسة في بناء الإستراتيجيات)

الفلسفةُ التعبويةُ في استثمارِ أئمةِ أهلِ البيتِ (عليهم السلام) للجاذبيةِ الروحيةِ للزهراءِ (عليها السلام)

المؤلف : الدكتور حميد سراج جابر

الصنف: دراسة

الطبعة: الاولى

سنة الطبع : 2025

الترقيم الدولي : ISBN: 978-9922-751-21-4

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (2502) لسنة 2025

تصميم الغلاف والاخراج الداخلي : علي كاظم الشويلي

الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان: بغداد – شارع المتنبي – مجمع العهد الجديد

الهاتف: 009647714343692 \ 07729247088

alwarsha2018@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب او أي جزء منه او تخزينه في نطاق استعادة معلومات او نقله بأي شكل من الاشكال دون اذن خطي مسبق من المؤلف، ان الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الورشة الثقافية

السنن التاريخية وآفاق المستقبل
(دراسة في بناء الإستراتيجيات)

تأليف

الأستاذ الدكتور

حميد سراج جابر

المقدمة

إنَّ السننَ التاريخيةَ تتعدى حدودَ الجانبِ النصيِّ التراثيِّ الذي قد يفهمُهُ بعضُهم من التاريخِ؛ لأنَّ التاريخَ ليس بهذه السلبيةِ حتى يكونَ مجرداً، بل هو علمٌ كسائرِ العلومِ الحركيةِ التطبيقيةِ القائمةِ على وفقِ المعاييرِ والنواميسِ التي تحكمُ المجتمعاتِ الإنسانيةِ؛ إذ إنَّ ميزةَ التاريخِ تكمنُ في تعاملِهِ مع الإنسانِ نفسِهِ، وهذا يمنحُهُ قدرةً تفاعليةً قد لا نجدُها في العلومِ الأخرى التي تأخذُ جانبَ التجريدِ عن المفاهيمِ المتعلقةِ بالإنسانِ كأساسٍ في عملِها -ليس انتقاصاً منها وإنما لبيانِ أهميةِ علمِ التاريخِ- ولا سيما ما يتعلقُ بالسننِ التاريخيةِ التي هي قواعدُ وقوانينُ أسَّسَ لها القرآنُ الكريمُ وحددَّها بوصفِها معاييرَ وثوابتَ تحكمُ حركةَ المجتمعاتِ الإنسانيةِ لا يمكنُ الخروجُ عنها أو تحديها؛ لأنَّ في ذلك سقوطَ هذه المجتمعاتِ.

إنَّ هذا السقوطَ يشبهُ الاختلالَ الذي قد يحدثُ عند تحدي القوانينِ الرياضيةِ، أو الفيزيائيةِ، أو الكونيةِ عموماً، مما يثبتُ أنَّ الصفةَ الحتميةَ التي نتعاملُ بها مع نتائجِ العلومِ التطبيقيةِ هي ذاتُها التي يمكنُ أن نتعاملَ بها مع السننِ التاريخيةِ؛ فالحتميةُ لا تخرجُ عن إطارِ السننِ، بل هي دالةٌ عليها ومؤكدةٌ لها.

والمشكلةُ الأساسُ هي مسألةُ التعاطي والتعاملِ مع السننِ التاريخيةِ، إذ إنهُ -مع شديدِ الأسفِ- هناك ضبابيةٌ في فهمِ هذه القوانينِ عند البعضِ، تحولت إلى عمليةِ تجهيلٍ (مقصودةٍ وغيرِ مقصودةٍ) للنيلِ من علمِ التاريخِ؛ فلا يقالُ عادةً إنَّ تجاهلَ السننِ والقوانينِ التاريخيةِ هو عملٌ إنسانيٌّ خاطئٌ، وإنما يقومُ البعضُ بتغييبِ السننِ من الأساسِ، وهو ما زادَ من إشكاليةِ التعاطي المشارِ إليها. ولعلَّ القولَ بالقصورِ في هذا التعاطي والمنهجِ البحثيّ التاريخيّ عموماً هو الذي كان حاكماً في التعاملِ مع السننِ التاريخيةِ بالدرجةِ الأساسِ، وهذا لا يمنعُ من وجودِ نسبةٍ قصديةٍ لإخفاءِ أهميةِ التاريخِ مثلما أُخفيت الكثيرُ من النصوصِ وتَمَّ تغليبُ المنهجِ النصيّ لتجهيلِ المجتمعاتِ وإضافةِ ما أُريدَ إضافتُهُ في العصورِ المختلفةِ؛ ومن هنا كانت القواعدُ والسننُ العدوَّ الأولَ لهؤلاءِ المحسوبينَ على العلمِ، والهدفُ واضحٌ بالتأكيدِ وهو توجيهُ التاريخِ بل وإعادةُ كتابتِهِ بعقليةِ المنتصرِ، وفي تحدٍّ ساذجٍ للسننِ والقوانينِ التاريخيةِ بحتميتِها التي أشرنا إليها، لتتغيرَ الأمورُ بعد ذلك، وينقلبَ السحرُ على الساحرِ بجريانِ هذه السننِ في المجتمعِ.

إنَّ غايةَ وهدفَ -بل وفرضيةَ- ما نريدُ دراستَهُ هو أنَّ السننَ التاريخيةَ تعكسُ ذلك النطاقَ الاستراتيجيَّ المستقبليَّ الذي يعتمدُ على التاريخِ، وعلى معاييرِ البحثِ العلميّ والمنهجِ التاريخيّ؛ إذ إنَّ الإشارةَ إلى الإطارِ التطبيقيّ والمستقبليّ إنما تقومُ على أساسِ القواعدِ التاريخيةِ التي أسَّسَ لها القرآنُ

الكريمُ، ونقصدُ السننَ التي هي جزءٌ مكملٌ للسننِ الإلهيةِ عموماً، سواءٌ أكانت كونيةً أم فلكيةً أم فسلجيةً، وما القصصُ القرآنيةُ الخاصةُ بالأقوامِ الماضيةِ إلا مَثُلاتٌ ونماذجُ ومصاديقُ لهذه الحركيةِ، وردت في القرآنِ الكريمِ بوصفِها دلائلَ على ثباتِ السننِ التاريخيةِ وحتميةِ نتائجِها المستقبليةِ بفعلِ توافرِ الشرائطِ نفسِها؛ فالعدالةُ تقتضي أن يُحكَمَ الإنسانُ وبيئتُهُ الاجتماعيةُ، والاقتصاديةُ، والعسكريةُ، والسياسيةُ، بالمعاييرِ النوعيةِ نفسِها دون حاكميةٍ زمانيةٍ أو مكانيةٍ حتى يكونَ الحُكمُ عادلاً.

إنَّ المفهومَ التطبيقيَّ الذي يعكسُ الآفاقَ المستقبليةَ في السننِ التاريخيةِ، هو ذاتُهُ المفهومُ الفلسفيُّ الذي يحكمُ التاريخَ؛ ففلسفةُ التاريخِ تصوّرُ الماضي على أنهُ تجاربُ وخبراتٌ مجانيةٌ مستخلصةٌ، وفي الوقتِ نفسِهِ فإنَّ القوانينَ التي أدت إلى الجريانِ والحدوثِ في زمنٍ ما، ستؤدي الغرضَ نفسَهُ في زمانٍ متقدمٍ (مستقبليٍّ)، والاختلافُ هو أنَّ الجريانَ الجديدَ يحدثُ مع توافرِ الخبراتِ المجانيةِ، وهو ما يعني أنَّ علمَ التاريخِ كفيلٌ ببناءِ الاستراتيجياتِ المستقبليةِ اعتماداً على ثباتِ السننِ التاريخيةِ واطرادِها وشموليتِها الزمنيةِ، وعلى الخبراتِ التطبيقيةِ التي هي أساسٌ في العلومِ كافّة. فلا يمكنُ أن يتجاهلَ العالِمُ المتخصصُ -حتى في العلومِ الصرفةِ- التاريخَ، بل إنَّ التطويرَ والتحديثَ هو نتاجُ التشخيصِ والتجربةِ التاريخيةِ، وحالما يخرجُ الإنسانُ عن نطاقِ التاريخِ وقوانينِهِ وفلسفتِهِ،

فإنهُ سيتوقفُ عند حدودٍ معينةٍ، وهي حدودُ التخلفِ والنكوصِ، وهو الأمرُ الذي جاءت الدراسةُ لتبينَهُ وترسخَهُ كمفهومٍ عميقٍ ينصفُ التاريخَ ويضعُهُ في مكانِهِ الصحيحِ.

لا تعتمدُ السننُ التاريخيةُ فقط على الثباتِ والشموليةِ المعروفةِ عنها، بل إنها تتنوعُ بتنوعِ الحياةِ البشريةِ وعلى وفقِ المنظومةِ القيميةِ وفي مختلفِ الصُّعُدِ؛ فلا يتصورِ القارئُ أنَّ سننَ القرآنِ الكريمِ محددةٌ بالجانبِ العقائديّ فحسب، وإنما هي معاييرُ لا تتحددُ بمجالٍ لأنَّ المعاييرَ هي مقاييسُ صارمةٌ لا مجاملةَ فيها، وهي ممتنعةٌ عن التغييرِ لقولهِ تعالى) :**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**[1] (، وقولهِ تعالى) :**وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا** .[2] (وهذه الصرامةُ هي صرامةُ الثباتِ والمبدأِ سواءٌ في الميدانِ السياسيّ أو الاقتصاديّ أو الاجتماعيّ، فكلُّها محكومةٌ ونتائجُها حتميةٌ لا محالةَ.

وهذا هو امتيازُ السننِ التاريخيةِ التي يقومُ عليها علمُ التاريخِ، كما أنَّ التنوعَ في هذه السننِ هو عنصرٌ آخرُ يحددُ آفاقَ المستقبلِ ويرمزُ له برمزياتٍ يُفترضُ أن يفهمَها الباحثُ العلميُّ ويحددَ مسارَهُ المستقبليَّ بها؛ فلا تطورَ بدونِ هذا المسارِ، ولا استراتيجيةَ خاليةٌ من دراسةٍ معمقةٍ في التاريخِ وقوانينِهِ، فوحدَهُ التاريخُ هو مَن يحددُ الآثارَ المستقبليةَ. ولعلَّ المرحليةَ والتكاملَ في السننِ يدلُّ على ذلك؛ فلا يمكنُ لسنةِ "التمكينِ" أن تكونَ من فراغٍ، وإنما هي سنةٌ تتكاملُ مع السننِ التغييريةِ الأخرى، سواءٌ سنة "التدافعِ" أو "الاستدراجِ" أو "الابتلاءِ"، وكلُّها تتبعُ تحققَ الشرائطِ،

مما يعني أنَّ الاستراتيجياتِ المستقبليةَ تُبنى على هذه الشرائطِ التي لها الحاكميةُ في الفاعليةِ والجريانِ.

يقومُ هذا الكتابُ على الربطِ بين القوانينِ التاريخيةِ التي تحكمُ الإنسانَ ومعطياتِ هذه القوانينِ وآفاقِها المستقبليةِ، وهو ما نسميهِ "بناءَ الاستراتيجياتِ المستقبليةِ" التي تراعي المعاييرَ الماضيةَ بوصفِها معاييرَ حاضرةً ومستقبليةً في الوقتِ نفسِهِ. يقتضي العملُ في البدايةِ بيانَ المفاهيمِ العامةِ والخاصةِ للسننِ، وتعميقَ الفهمِ بحركيتِها وميادينِها التطبيقيةِ، ومن ثَمَّ تأكيدَ أنَّ هذه القواعدَ لا تخذلُ الناسَ في زمنٍ معينٍ على حسابِ زمنٍ سابقٍ؛ لذا كان لزاماً علينا تأكيدُ الجانبِ التطبيقيّ لبناءِ الاستراتيجياتِ.

والأمرُ المهمُّ الآخرُ هو ما يتعلقُ ببناءِ "استراتيجياتِ التشخيصِ" كمرحلةٍ أولى، فلا يمكنُ للخططِ أن تعتمدَ على التخمينِ، بل على تشخيصٍ مبنيٍّ على معاييرَ علميةٍ كفلتها السننُ التاريخيةُ اعتماداً على التجربةِ. وميزةُ هذا التشخيصِ أنهُ "مجانيٌّ" أولاً، و"متاحٌ" لكلِّ الفئاتِ ثانياً، مما يمنحُ البناءَ الاستراتيجيَّ فاعليةً أكبرَ. كما حرصَ الكتابُ على بيانِ الأسسِ الكفيلةِ بـ"التصدي والمواجهةِ"؛ فلا يمكنُ أن يخلوَ العملُ من مشكلاتٍ وانحرافاتٍ تتطلبُ دعماً يُبنى على قوانينَ مثريةٍ وتنمويةٍ (الشرائطُ أو الأسبابُ.(

ولم يقتصرِ الأمرُ على المواجهةِ، بل انسحبَ إلى "إدارةِ الأزماتِ" بمختلفِ أشكالِها، فإدارةُ هذه الأزماتِ تحكمُها المحدداتُ التي تتبناها السننُ في

جريانِها، وهي إدارةٌ استراتيجيةٌ بامتيازٍ لأنَّ نتائجَها معلومةٌ سلفاً ما دامَ اتجاهُ الإدارةِ قائماً على الضابطةِ والمحددِ.

وفي الختامِ، ركَّزنا على "التكاملِ المعرفةِ" الذي يربطُ بين السننِ بمختلفِ أنواعِها؛ فالنصرُ الاستراتيجيُّ (النجاحُ المتحققُ) إنما جاءَ بالتكاملِ مع التجاربِ السابقةِ بوصفِها اللبنةَ الأولى. وما يميزُ هذه الآفاقَ هو تنميةُ "المفاهيمِ القيميةِ"؛ فهذه الاستراتيجياتُ بعيدةُ المدى، مضمونةُ النجاحِ، ولا تخرجُ عن الإطارِ القيميّ، بل الغايةُ في السننِ التاريخيةِ لا تبررُ الوسيلةَ أبداً، وإنما ثباتُ المعيارِ القيميّ هو الذي يضمنُ التطورَ والتحديثَ الحقيقيَّ، وهي الفكرةُ التي رسخَها القرآنُ الكريمُ في الميدانِ المعرفيّ.

الفصل الاول

حركية السنن التاريخية وميادينها التطبيقية

ترتبطُ المفاهيمُ "المتحركةُ" و"الحيويةُ" و"الثابتةُ" عادةً بالعلومِ الصرفةِ، بل وتكادُ تقتصرُ عليها في العرفِ الأكاديميّ الشائعِ؛ وهي الثقافةُ التي دَرَجَ على نشرِها حتى أربابُ البحثِ العلميّ، دون تركِ حيّزٍ -ولو يسيرٍ- للعلومِ الإنسانيةِ للارتباطِ بهذه المفاهيمِ أو القوانينِ. وبالتأكيدِ، فإنَّ ثمةَ خطأً ظاهراً في تلك الثقافةِ؛ لأنها لم تنصف هذه العلومَ، ولا سيما "علمَ التاريخِ"، وهو الأمرُ الذي يستوجبُ تشخيصاً ومعالجةً علميةً عميقةً.

إنَّ هذه الدراسةَ هي محاولةٌ جادةٌ لإثباتِ وجودِ "الحيّزِ التطبيقيّ" في علمِ التاريخِ، والبرهنةِ على اتصافِ قوانينهِ بالحركيةِ والحيويةِ والثباتِ. ونقصدُ بهذه القوانينِ (السننَ التاريخيةَ)؛ وهي القواعدُ والنواميسُ الثابتةُ، الحركيةُ، والمطردةُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ. وقد وظَّفها القرآنُ الكريمُ لتأكيدِ العلميةِ والصرامةِ في الثباتِ والتحققِ، على الرغمِ من تعاملِها مع "الإنسانِ" بوصفِهِ كائناً مختاراً، وليس مع قيمٍ مجردةٍ أو قوانينَ كونيةٍ وطبيعيةٍ صماءَ؛ فمثلما توجدُ القوانينُ التطبيقيةُ في العلومِ البحتةِ، توجدُ -كذلك- القوانينُ التطبيقيةُ في العلومِ الإنسانيةِ، وهي التي عُرِفَت بالسننِ التاريخيةِ.

إنَّ تنوعَ هذه السننِ مَيَّزَها بالمرحليةِ والشموليةِ والتجددِ، ومن ثَمَّ بالتكاملِ الفكريّ الذي يستوعبُ المجالاتِ كافّة؛ وهو المنهجُ الذي ارتكزَ عليه الطرحُ القرآنيُّ. لذا، ينبغي ألا نفهَمَ "الحيّزَ" على أنه يمثلُ القِلَّةَ أو المحدوديةَ، وإنما يمثلُ "منطقةً رئيسةً" في العلومِ الإنسانيةِ تتعدى علمَ التاريخِ

والعلومَ التربويةَ والنفسيةَ، فضلاً عن العلومِ الدينيةِ، لتدخلَ في تركيبِ قواعدِ العلومِ كافّة التي تتعاملُ مع الإنسانِ كعَيّنةٍ بحثيةٍ.

ولعلَّ أهمَّ هذه القوانينِ والقواعدِ -أو السننِ التاريخيةِ- هي": **سُنَّةُ الاستخلافِ والتمكينِ** "النافذةُ والجاريةُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ لما لها من مرتكزاتٍ وآثارٍ تُبنى على الإنسانِ نفسِهِ حينما يُمكِّنُهُ اللهُ في الأرضِ، بل ويورِثُها إيَّاهُ من الظالمينَ بفعلِ جريانِ "**سُنَّةِ الاستبدالِ** "المرتبطةِ بهذا التمكينِ. على أنَّ ذلك التمكينَ والاستبدالَ إنما يأتي نتيجةً لتفكرِ الإنسانِ وتعقلِهِ بهذه القوانينِ، لا لتحديها؛ لأنَّ تحدي القانونِ العلميِّ يسببُ الاختلالَ ومن ثَمَّ السقوطَ.

والحالُ ينطبقُ على "**سُنَّةِ التدافعِ** "التي تقضي بدفعِ الشرِّ بالخيرِ، والظلمِ بالعدلِ، عن طريقِ فئةٍ من الناسِ يذودونَ عن الباقينَ في كلِّ موطنِ تحدٍّ؛ وفي الوقتِ نفسِهِ، فإنَّ توانيهم يسببُ سقوطَ المجموعِ. وكذلك بالنسبةِ لـ "**سُنَّةِ الاستدراجِ** "وقبلها "**الإملاءِ**"؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُملي للمنحرفِ بالنعمِ فيظنُّها رضاً سبحانَهُ، بينما هو يُستدرَجُ بفعلِ يدِهِ، وهو درسٌ قرآنيٌّ بليغٌ للبشرِ، ناهيك عن الأنواعِ الأخرى للسننِ.

وللسننِ ضوابطُ ومحدداتٌ تضمنُ جريانَها، كما أنَّ لها فلسفةً وهدفاً، وهي "فلسفةٌ تعبويةٌ". وما يهمنا هنا هو تأكيدُ ثباتِها كالقانونِ العلميِّ الصارمِ، وإثباتُ حركتِها وحيويتِها؛ لأنها قانونٌ لا يمكنُ التعدي عليهِ، وصولاً إلى

النتيجةِ الرئيسةِ: وهي وجودُ "القانونِ الصارمِ" في العلومِ الإنسانيةِ، وكونُ هذا القانونِ حيوياً وحركياً ومتجدداً.

ارتكزَ هذا الفصلُ في استهلالِهِ على بيانِ مفهومِ السننِ التاريخيةِ ودلالاتِها القرآنيةِ، وذلك بطرحِ معانيها اللغويةِ والاصطلاحيةِ، وتبيانِ هيكليتِها وتنوعِ أساليبِ طرحِها في القرآنِ الكريمِ لتحقيقِ الغايةِ منها. فيما خُصِّصَ المرتكزُ الثاني للدراسةِ حولَ "ثباتِ السننِ التاريخيةِ وحتميتِها التطبيقيةِ" كالقانونِ العلميّ في الدراساتِ الصرفةِ. أما المرتكزُ الثالثُ، فقد تناولَ "حيويةَ هذه السننِ وحركيتَها"، أي: ظهورَها وتجددَها وجريانَها المستمرَّ عبرَ الزمانِ.

المبحث الاول
مفهوم السنن التاريخية ودلالاتها الفكرية

يرتبط مفهوم "السنة" بالإطار المعنوي النامي؛ كونه يخرج من حدود اللفظ اللغوي ليدخل في الصياغات الفكرية المنتجة التي تبناها القرآن الكريم. فالسنة في اللغة ما هي إلا "الطريقة"[١]، وسنَّ اللهُ سنةً أي بيَّن طريقاً قويماً؛ قال الله تعالى: (**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ**).[٢] والمقصود هنا هو تحكيم القانون والشرع، وهو ما سار عليه الماضون.[٣] وليس هناك ابتعاد كبير بين المعنى اللغوي المطروح للسنن وبين المفهوم القرآني لها؛ فنقطة الاشتراك الرئيسة هي المنهجية والمسار والاتجاه والقصدية في الطرح القرآني، وما يقابلها في اللغة من الإشارة إلى الطريق.

ومن هنا، فإنَّ السنن التي نحن بصددها هي القوانين والقواعد التي تخص الإنسان وحركته عبر الزمن، وقد ذكرها القرآن الكريم وثقَّف لها بسبب حيويتها واطرادها وثباتها كالقانون العلمي. فالقرآن الكريم ثروة من العلوم والمعارف، وكنز من القوانين والنواميس التي أودعها الله في الكائنات والمخلوقات؛ وهي السنن الكونية، وهذه السنن والقوانين التي أوجدها الله

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٢٢٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٦٢.

(٣) الرازي، تفسير الرازي، ج٢٥، ص٢١٢.

في ملكوته بحكمته وأجراها بتدبيره قد استطاع الإنسان المفكر أن يهتدي إلى بعض منها بتوفيق من الله.[١] ونقصد بالسنن الكونية تلك التي تتعلق بالأشياء والظواهر والأحداث المادية والطبيعية غالباً، أما الاجتماعية فهي التي تتعلق بسلوك البشر وأفعالهم ومعتقداتهم.[٢]

وهذا التناغم بين القانون التاريخي الذي يرتبط بالبشر والقانون الطبيعي هو الحاكم في بيان مفهوم السنة؛ إذ إنَّ الصيغة المستفادة من كل ذلك هي "علمية وثبات السنن التاريخية" كما لو كانت قوانين رياضية، مما يسد الفجوة الكبيرة بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية؛ فالسنن التاريخية هنا هي السنن التي تتعامل مع الإنسان، ولكنها قواعد وقوانين ثابتة تناظر النواميس والسنن الكونية.

وربما كانت هذه الفكرة ثقيلة بعض الشيء على عقلية المتتبع، بفعل الثقافة السائدة المتأصلة في النظر للعلوم التي ترتبط بالإنسان بشكل مباشر؛ إذ إنَّ بعضهم لا يقرُّ بإمكانية التفكير بوجود قوانين اجتماعية، نظراً لعدم خضوع الظاهرة الاجتماعية للتجريب المعملي من حيث تشابك العمليات أو الأفعال الإنسانية وصعوبة ارتهانها إلى اليقين العلمي.[٣]

ويمكننا أن نناقش هذا الرأي من اتجاهات عدة:

---

(١) محمد إسماعيل إبراهيم، القرآن وإعجازه العلمي، ص١٦٩.

(٢) توفيق بن أحمد الغلبزوري، السنن الكونية والاجتماعية في القرآن، ص٧.

(٣) الصدر، السنن التاريخية، ص٦٩؛ عبد الإله المسلم، سنن التاريخ، ص٢.

- **الاتجاه الأول**:هو وجود نفس المرتكزات في نوعي هذه السنن، ونقصد المرتكزات الكفيلة بإثبات العلمية، وأبرزها: "الثبات" وعدم التغير بأي طارئ خارجي ما عدا مشيئة الله تعالى، والمرتكز الآخر هو "الحيوية والاطراد"، أي الحركية والتكرار دون حدود زمنية؛ إذ يرى بعض الباحثين أنَّ التأكيد على طابع الاطراد في السنَّة هو تأكيد على الطابع العلمي للقانون التاريخي؛ لأنَّ أهم قانون يميز القانون العلمي عن بقية المعادلات والفروض هو الاطراد والتتابع وعدم التخلف،[١] وهذا التتابع بمثابة قاسم مشترك بين هذين النوعين من القوانين.
- **الاتجاه الثاني**:إنَّ الفروق الموجودة هي فروق شكلية لا تتعدى العيِّنة المقصودة، ولا تمس الضوابط والمحددات الحاكمة في الثبات. ومن هنا نجد من تبنى القول بعدم وجود فارق بين التجريبين: الطبيعي والاجتماعي، ما دام تاريخ البشرية يحفل بظواهر اجتماعية متنوعة في مجالات السياسة والاقتصاد والأخلاق.. إلخ، بحيث يمكن رصد الخطوط المشتركة بينها واستخلاص القانون الاجتماعي منها.[٢]

(١) الصدر، السنن التاريخية، ص٦٩.

(٢) عبد الإله المسلم، سنن التاريخ، ص٣.

- **الاتجاه الثالث** :إنَّ هذه القوانين بنوعيها (الكونية والتاريخية) قد تعامل معها القرآن الكريم بصفة "الثابت المطرد"، ولم يفرق بينها إلا على أساس "التسخير" لصالح الإنسان.

إنَّ طرح المفهوم كما ورد في القرآن الكريم يحتم علينا التعمق والوعي في صورته الواردة في الآيات الكريمة، وهي صورة متنوعة الأشكال؛ لأنها وردت منفردة تارة، ومضافة إلى الباري عز وجل تارة أخرى، وملحقاً بها أقوام تارة ثالثة، وفق فلسفة وغاية بيَّنها علماء التفسير في تفاسيرهم حينما تناولوا الآيات التي ضمتها.

ولكي تتضح الفكرة عن هذا الطرح، يمكن الإشارة إلى ما ذكره أحد الباحثين بهذا الصدد، فقد بيَّن أنَّ لفظ (سنة) الذي ورد بشكل مجرد جاء بمعنى الطريق الذي سِير به في القوم السابقين؛ لقوله تعالى: (**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ**). [1] ويذكر الطبري أنَّ معنى الآية أنه قد مضت وسلفت فيمن كان قبلكم سنن هي مَثُلات لمن بعدهم وأمثال وعبر.[2] وهذا هو سر ذكر مفهوم السنة بشكله اللفظي المجرد، أي الإشارة إليه كمَثُلات وأحداث تحكمها قوانين هي نفسها حاكمة على الأقوام الذين تُطرح عليهم مثل هذه الآيات، وكذلك مَن يأتي بعدهم، وهو ما أسميناه "فلسفة السنن التاريخية."

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٧.

(٢) د. محمد السيسي، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ص٧.

فيما جاء الشكل الثاني للمفهوم في الطرح القرآني بإضافة اللفظة لاسم الجلالة، أي: (**سُنَّةَ اللَّهِ**)؛ لقوله تعالى: (**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**)[١]؛ وهي طريقته وعادته سبحانه وتعالى التي قد مضت في الأمم من نصر أوليائه على أعدائه[٢]. وقد فسر الفخر الرازي هذا الربط بالقول إنَّ سنة الله تعالى هي نصرة رسوله وإهلاك عدوه.[٣] واختلاف هذا الشكل عن الشكل السابق أنه وعدٌ بالنصر، وهو وعد حتمي لأنه من الله تعالى؛ فيما كان الشكل السابق إشارة إلى قانون لا يخلو من الوعيد والتخويف بما مرَّ على الأمم السابقة نتيجة ما جنته أيديهم، فضلاً عن كونه عبرة لغرض الاعتبار وانتهاج منهج الحق.

أما الشكل الآخر للسنة حسب الطرح القرآني، فهو إضافتها إلى الأولين، أي: (**سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ**)؛ وقد أسماها أحد الباحثين بالتنصيص على مجموعة من الحقائق الواقعية أو النواميس الطبيعية.[٤] وقد ضمتها الآية القرآنية الشريفة: (**فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ**)[٥]؛ وهي عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله.[٦]

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٤، ص١٣٢.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢٣.

(٣) د. محمد السيسي، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ص٧.

(٤) تفسير الرازي، ج٢٨، ص٩٧.

(٥) د. محمد السيسي، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ص٧.

(٦) سورة الأنفال، الآية ٣٨.

والذي يُلاحظ أنَّ مجرد انتساب السنة لله تعالى باللفظ ترتب عليه الوعد والنصر، لبيان حكمة الله ورحمته بعباده؛ أما ذكرها المجرد كما مرَّ، أو ذكرها هنا مع الأولين، فإنه تحذير وإظهار لعاقبة من يتحدى السنن التاريخية؛ فالكلام موجه للحاضر وليس للماضي الذي جرت عليه هذه السنن.

وبالنتيجة الإجمالية، فإنَّ المنظور القرآني للسنن يعرِّفها على أنها القواعد والقوانين الحاكمة للمنظومة الكونية والاجتماعية، والتي لها خواص الثبات والاطراد؛ سواء ما كان منها يخص الإنسان بشكل مباشر والقوانين التاريخية الحاكمة، مثل: (سنة الاستخلاف والتمكين، الاستبدال، التدافع، المداولة، الاستدراج، الإمهال، التمحيص، التطهير)، أو ما يخص "التسخير" الذي يتعلق بالقوانين الكونية وما سُخِّر للإنسان من مظاهر الطبيعة.

وكل ما يحدث يقع وفق قانون عام صارم، دقيق وثابت، لا يخرج عن أحكامه شيء.[1] وقد وُجِّهت طاقة العقل لاكتشاف السنن التاريخية الحاكمة على الأمم والشعوب[2]؛ ما يعني أنَّ العقل البشري والإطار الفكري هو المقدمة المشترطة لكي تأخذ هذه السنن أو القوانين دورها الذي تضطلع به فعلاً.

---

(١) القرطبي، تفسير القرطبي، ج٧، ص٤٠٤.

(٢) د. عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات، ص١٤.

المبحث الثاني
ثبات السنن التاريخية وحتميتها التطبيقية

يرتبط الجانب التطبيقي للعلوم الإنسانية بالحيز والفراغ الذي ملأته السنن التاريخية بفعل حتميتها وثباتها؛ لكونها قواعد غير متغيرة، لذا امتازت بالتجدد، فهذه السنن أو القوانين -وبفعل خاصية الثبات- تعكس الجانب العملي أو التطبيقي الذي أشرنا إليه.

ولعل هذا الثبات في السنن التاريخية يدخل العلوم الإنسانية إلى ساحة العمل بقوة أسوة بالعلوم الصرفة التي تتناغم مع هذه السنن من حيث وجود القوانين التي تتحكم في تطبيق عملياتها، ومن ثم تتحكم في الأحداث التي تحكمها تلك السنن الإلهية؛ إذ "إنَّ لله سنناً يسير عليها العالم، وتخضع لها حياة الأفراد والأمم، وتُؤثر في قيام الحكومات والقيادات وسقوطها، وهي سنن ثابتة مقرَّرة، وجارية نافذة، لا تتغيَّر ولا تتحوَّل. فكلَّما حدَث وضع أو نشأت ظاهرة تتطلَّب تلك السنن، نفذت وتحكَّمت، لا يحول دون نُفوذها حائل، ولا تنفع في ردّها حيلة".[1]

لقد عرض القرآن الكريم هذا الثبات والحتمية التطبيقية في أكثر من آية، على مستوى العموم والخصوص، وبشكل يثبت هذه السنن ويشير إليها بوصفها قواعد وقوانين ممتنعة من التبديل؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي

(١) محمد ساجد القاسمي، استبدال الأمم والحكومات من السنن الإلهية، ص ٣.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾،[1] وكذلك قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.[2]

ودلالات هذه الآيات صريحة في التركيز على ذلك الثبات والنفاذ في القواعد والقوانين المعروفة بالسنن التاريخية، وكما يقول الفخر الرازي في تفسيرها بأن هذه السنة ليست مثل الحكم الذي يُبدل ويُنسخ؛ فإن النسخ يكون في الأحكام، أما الأفعال والأخبار فلا تُنسخ.[3] في إشارة إلى ما حدث للأقوام السابقة لتذكير المؤمنين بأنه لو قاتلكم الذين كفروا بالله -أيها المؤمنون- لخذلهم الله حتى يهزمهم عنكم خذلانه أمثالهم من أهل الكفر به، الذين قاتلوا أولياءه من الأمم الذين مضوا قبلهم؛ فسنة الله مصدر من معنى الكلام لا من لفظه.[4]

إن المفهوم العام لحتمية السنة وتطبيقاتها وعدم تبديلها في هذه الآيات يفضي إلى القول بأنه يعني: ولن تجد لسنة الله التي سنها في خلقه تغييراً،[5] وأن أحداً لا يقدر على تغيير سنة الله وإبطالها.[6]

---

(١) الفتح/ ٢٣.

(٢) الأحزاب/ ٦٢.

(٣) تفسير الرازي، ج ٢٥، ص ٢٣١.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج ٢٦، ص ١٢٠.

(٥) الطبري، جامع البيان، ج ٢٢، ص ٦٠.

(٦) الجصاص، أحكام القرآن، ج ٣، ص ٤٨٧. وينظر: السمرقندي، تفسير السمرقندي، ج ٣، ص ٧٠.

والملاحظ أن الربط بين سنة الأولين وسنة الله كما وردت في الآيات يتناغم فيما بينها لتثبت ذلك الاتجاه الذي أشرنا إليه من الحتمية والرعاية الإلهية؛ فقد أضاف الله سبحانه وتعالى السنة في الأول إلى الأولين حينما قال: ﴿سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾؛[1] لأن سنة الله الإهلاك بالإشراك والإكرام على الإسلام، فلا يعلم أنهم ينتظرون أيهما، فإذا قال: "سنة الأولين" تميزت، وفي الثاني أضافها إلى الله؛ لأنها لما عُلمت فالإضافة إلى الله تعظمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع. وثانيهما: أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الإنكار واستكبارهم عن الإقرار، وسنة الله استئصالهم بإصرارهم؛ فكأنه قال: أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها.[2]

إن المقاصد والمباني التي طرحتها هذه الآيات القرآنية، والتي تخصنا في هذا المقام المتعلق بثبات السنن وحتميتها، تنشأ أساساً من الفلسفة التعبوية التي يتبناها القرآن الكريم، وعليه يمكن أن نفهم هذه المقاصد ونحددها بما يأتي:

- **المقصد الأول** :وهو مقصد تثقيفي تعبوي يهدف إلى التفريق بين الأحكام والأفعال ببيان ثبات الأفعال التي تقع ضمن السنن وتميزها عن الأحكام التي من الممكن نسخها.

---

(١) الأنفال/ ٣٨.

(٢) الرازي، تفسير الرازي، ج ٢٦، ص ٣٥-٣٦.

- **المقصد الثاني**:ربط السنة التاريخية بالتجربة الماضية بهدف تحصيل الخبرة والاستعداد وقراءة الآثار المترتبة مستقبلياً.
- **المقصد الثالث**:فرز أسلوب المخالفة للماضين وطبعها بطابع السنة لإثبات الاستمرارية في العصيان وبما تدل على تحدي السنة الثابتة، والاستفادة من ذلك في تنمية التعقل والتفكر للدخول في حيز السنة التاريخية التطبيقية.
- **المقصد الرابع**:إن السنة الواردة في الآيات القرآنية الكريمة تتعدى الجانب اللفظي لتدخل في المفهوم والجانب المعنوي، وكأنها تشير إلى سقوط تلك الأقوام التي أشارت إليها بما كتبه الله عليهم كنتيجة للسنة التاريخية المعنوية.

وكذلك من الآيات ما أشار إلى أن هذه القواعد أو السنن ممتنعة من التحويل لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.[1] وقد جاءت بنفس معنى التبديل؛ فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي لن تجد لسنة الله في خلقه تبديلاً،[2] أو لا يقدر أحد أن يغير فعل الله تعالى.[3]

---

(١) الإسراء/ ٧٧.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٢٢، ص ١٧٦. وينظر: السمرقندي، تفسير السمرقندي، ج ٢، ص ٣٢٤.

(٣) السمرقندي، تفسير السمرقندي، ج ٣، ص ١٠٧.

وقد تساءل الفخر الرازي عن السر في إيراد المفهومين (التبديل والتحويل) للإشارة إلى السنة، ورأى أن التبديل هو تحويل فما الحكمة في التكرار؟ وهنا وجد بأن قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي حصل العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره، وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي حصل العلم بأن العذاب -مع أنه لا تبديل له بالثواب- لا يتحول عن مستحقه إلى غيره؛ فيتم تهديد المسيء.[1]

وهذه الحتمية التطبيقية الواردة في هذه المقارنة بين التبديل والتحويل ليس هي فقط ما يمكن أن نفهمه منها، بل إنها كاشفة وموحية للعدالة الإلهية في التعامل مع الناس؛ فعدم التغيير مقترن بعدم الإحالة والتحويل، فمن يستحق العقاب بناءً على القاعدة والقانون في السنن التاريخية لا يمكن أن يفتديه الله تعالى؛ لأن ذلك يخالف السنة أيضاً.

وهناك من الآيات القرآنية الكريمة ما أشارت إلى ذلك الثبات وعدم التغيير والتبديل، ولكن بصورة إيحائية من خلال إشارتها إلى وجود هذه الخاصية بالقرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[3]

---

(١) الرازي، تفسير الرازي، ج ٢٦، ص ٣٥-٣٦.

(٢) الأنعام/ ١١٥.

(٣) الكهف/ ٢٧.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[١] وكذلك قوله جل وعلا: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.[٢]

وكلمة ربك تعني القرآن؛ سماه كلمة كما تقول العرب للقصيدة من الشعر يقولها الشاعر: هذه كلمة فلان. "صدقاً وعدلاً" يقول: كملت كلمة ربك من الصدق والعدل، والصدق والعدل نُصبا على التفسير للكلمة، "ولا مبدل لكلماته" أي لا مغير لما أخبر في كتبه أنه كائن من وقوعه في حينه وأجله الذي أخبر الله أنه واقع فيه،[٣] ولا مغير لما أوعد بكلماته التي أنزلها عليك أهل معاصيه والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك،[٤] فمن صفات كلمة الله قوله: (لا مبدل لكلماته)؛ لأن معنى (وتمت كلمة ربك) أنها تامة في كونها معجزة دالة على صدق محمد ﷺ،[٥] ومن ثم فإن معنى (لا مبدل لكلماته) أي يمتنع تطرق التغيير والتبديل إليه.[٦]

---

(١) الأنعام/ ٣٤.

(٢) يونس/ ٦٤.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج ٨، ص ١٣.

(٤) الطبري، جامع البيان، ج ١٥، ص ٢٩٠.

(٥) الرازي، تفسير الرازي، ج ١٣، ص ١٦١.

(٦) الرازي، تفسير الرازي، ج ٢١، ص ١١٤.

وعلى ما يظهر إن ذكر القرآن الكريم لعدم تبديل كلمات الله هو إيحاء وتوجيه وتثقيف بأن هذه الكلمات -وهي القرآن الكريم- مترجم وكاشف عن السنن الثابتة؛ فلا يقصد بالقرآن الكريم إلا تلك الأفكار والأفعال التي أشار لها والتي هي حادثة لا محالة؛ لأنها تمثل القواعد والقوانين الحتمية سواء ما يخص الأمور الدنيوية أو آثارها الأخروية.

إن كل ما يحدث كما أسلفنا يقع وفق قانون عام صارم دقيق وثابت لا يخرج عن أحكامه شيء،[١] وقد اهتدى الإنسان المفكر إلى هذه القوانين والسنن الثابتة التي أشار لها القرآن، ووجهت طاقة عقله لاكتشافها لأنها حاكمة على الأمم والشعوب.[٢] وبالتأكيد فإن الاهتداء لهذه السنن يخضع للعقلنة التي تُعد ضابطة لذلك الاهتداء دون أن يكون هناك إطلاق عام، ومن هنا فإن المفكر ومن ثم المهتدي يتمكن من توظيف السنن التاريخية في التطبيق العملي بحسب مراحل حياته الزمنية والمكانية.

لقد ارتبط المفهوم التطبيقي للسنن التاريخية بصيغ عدة عكست الجانب العملي والمشتركات الأساسية مع العلوم الصرفة، وقد مثلت هذه الصيغ الإطار الذي قام عليه الحيز التطبيقي للعلوم الإنسانية، ويمكن إجمالها بما يأتي:

---

(١) د. عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات، ص ١٤.

(٢) مركز الرسالة، دور العقيدة في بناء الإنسان، ص ٩٦.

١. **الصيغة الأولى :**وحدة القانون أو القاعدة أو السنة والتماثل في صفاتها من حيث الثبات والاطراد ومن ثم التطبيق الفعلي الشمولي.

٢. **الصيغة الثانية :**عدم خضوعها للتغير والتبديل بحكم؛ فهي حاكمة على كل ظاهرة وحدث، دون التفريق بين كونها فردية أم جماعية.

٣. **الصيغة الثالثة :**إنها تقوم على أساس التفكر فيها وتعقلها بما يضمن تطبيقها وعدم تحديها بالشكل الذي يؤدي إلى السقوط؛ فالقانون الكوني والسنة التاريخية حتمية وجارية ولا يمكن الوقوف بوجهها.

إن أهم ما يميز ذلك الثبات وما يرافقه من تأكيد على الجانب التطبيقي هو الرعاية الإلهية، وهو الأمر الذي يحتم الجريان والنفاذ؛ فالسنة التاريخية هي ربانية مرتبطة بالله سبحانه بمعنى أن كل قانون من قوانين التاريخ هو قرار رباني لربط الإنسان بالله حتى في التعامل مع القوانين الكونية.[١] فالسنن هنا هي مشيئة الله النافذة في هذا العالم وفق قواعد حكيمة وطرائق قويمة، متجددة بتجدد أسبابها، ملازمة للأفعال التي توجب وقوعها، ثابتة لا تتغير بتقدير قدَّره الله وشرطه على خلقه، إنها

(١) الصدر، السنن التاريخية، ص ٦٩.

وعد الله وعادته في الخلق، ذكرها الله سبحانه في كتابه الخاتم في إطار القياس التمثيلي بشواهد التاريخ، وأحوال الأمم، وصيرورة المجتمعات.[١]

وربما نجد أن فهم هذه الفكرة عند بعض الباحثين قد شابه نوع من الخلط في ربط هذه السنن بالإنسان بنسبة من النسب، وتحديد ثباتها بفعله على وجه العموم؛ إذ رأى أن الظواهر الاجتماعية هي تلك التي تنجم عن تجمع الناس وتفاعلهم مع بعضهم، ودخولهم في شبكة من العلاقات المتبادلة وتصرفاتهم متداخلة، فالفعل البشري بالنسبة للظواهر الاجتماعية هو الذي تتشكل بموجبه حركة التاريخ زماناً ومكاناً، مقدمات ونتائج، وأمر البشر هذا وما يترتب عليه من تبعات يجري وفق قواعد ثابتة وسنن مطردة، مؤطرة بمشيئة الله وإرادته في خلقه وعادته فيهم، عرفتها مؤلفات الفكر الإسلامي المعاصر بأنها القوانين والنواميس الإلهية التي تحكم سير المجتمعات البشرية على وجه العادة والاطراد.[٢]

بل إن هذا الفهم وصف السنن بالنسبية والتغير؛ بحجة أن الواقع البشري ليس منضبطاً كانضباط الكون المادي، وأن السبب الرئيس في هذا كون الإنسان نفسه غير منضبط السلوك فهو دائم التقلبات، وكونه مكلفاً مسؤولاً في هذه الحياة بموجب نصوص القرآن الكريم، مفطوراً على

(١) الدكتور محمد السيسي، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ص ٧.

(٢) الدكتور محمد السيسي، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ص ٥.

مجموعة من الغرائز والمثيرات تجعله يتقلب تبعاً لمجموعة من المثيرات وتبعاً لقوته وضعفه في الاستجابة للمسؤولية.[1]

وهنا ينبغي مناقشة ذلك الارتباط بين الإنسان والسنة، والذي هو ارتباط دقيق أدى إلى سوء فهم في الفكرة؛ فتدخل الإنسان هو بمدى تعقله وتفكره لها؛ لأن السنن نواميس ثابتة جارية لا تتوقف لمجرد فعل بشري، فالفعل البشري المعطل للسنة التاريخية هو تحدٍّ لها، ليس له امتداد مادي زمني وإنما عاقبته الفشل والسقوط؛ إذ لا يمكن أن نفهم سلوك ومزاج الإنسان على أنه صيغة طبيعية تتحكم في حدوث السنة، بل إن ذلك لا يؤثر مطلقاً على ثبات السنن لعدم وجود الارتباط أصلاً إلا فيما بين التعقل وبينها، أما السلوك وعدم الانضباط فهو تعطيل وتحدٍّ للسنة لا يلبث إلا أن يسقط.

(١) الدكتور محمد السيسي، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ص ٧.

المبحث الثالث
حركية السنن التاريخية وحيويتها

تمثل الحركية والحيوية المحور الذي تقوم عليه السنن التاريخية، وهو ما يميزها ويجعلها نقطة التحول في العلوم الإنسانية في علاقتها مع العلوم التطبيقية الأخرى؛ إذ لا ينظر إليها تلك النظرة التراثية الروائية، وإنما نظرة قائمة على الحركية والاطراد والتكرار بحسب القانون العلمي، وهو الأمر الذي لا يعتمد في الأوساط العلمية عندما تتعامل مع التاريخ والعلوم الإنسانية باعتباره العلم الممثل لها كباقي العلوم الأخرى؛ بسبب الثقافة السلبية السائدة في توجيه المادة التاريخية وفي التعامل معها أيضاً.

والقول إن السنة التاريخية حركية ومطردة يعني أنها ليست علاقة عشوائية قائمة على أساس الصدفة والاتفاق، وإنما هي علاقة ذات طابع موضوعي لا تتخلف في الحالات الاعتيادية التي تجري فيها الطبيعة والكون على السنن العامة.[١] وقد جاءت تلك الحيوية والحركية بناءً على جملة أمور:

أولاً: إن السنن التاريخية قائمة على قانون وقاعدة، ومن ثم فإن ذلك يعني وجود الثبات، ومن طبيعة الثابت غير المتغير أن يتكرر ويتحرك ويمتاز بالحيوية.

---

(١) الصدر، السنن التاريخية، ص ٦٩.

ثانياً: إن هناك علاقة موضوعية بين هذه السنن وبين النواميس الطبيعية تستدعي حضورها -أي النواميس- في كل زمان ومكان .

ثالثاً: تندرج هذه الحركية ضمن المنحى التطوري الفطري عند الإنسان، والذي يحتاج إلى استحضار القوانين العلمية الثابتة والتي منها السنن التاريخية.

إن نظرة عميقة للسنن التاريخية التي جسدها القرآن الكريم في آياته تبين لنا تلك الأمور الإجمالية التي أشرنا لها؛ فقد ثقفت الآيات لذلك التكرار والاستحضار، بل والابتلاء وكيفية التصدي له، إذ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1]. وهذه الآية الكريمة صريحة وواضحة في إثبات ذلك الانعكاس والحيوية في السنن التاريخية بما يجسد الحيز المتحرك للتاريخ بوصفه من العلوم الإنسانية التي مثلت السنن الجزء المتكرر زمنياً منها بفعل ثباته العلمي.

وربما هذا ما يفسر طرح المفسرين العلمي بخصوص هذه الآية؛ إذ نجد اختصار الرازي للمطلب بعبارة بسيطة استدل بها على المقصود بما يتناغم مع ما أسلفنا ذكره عن ذلك التكرار وتلك الحركية في السنة، إذ

(١) البقرة/ ٢١٤.

رأى إن تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾[1] (يدل على أن إتيان ذلك متوقع منتظر).[2] وهذا التوقع والانتظار ليس من باب التقدير والمصادفة، وإنما بناءً على القاعدة الحيوية والحركية للسنن التاريخية وبما يمثل البعد المرحلي المتكامل الذي يمثل السبب والنتيجة.

وهناك من التفاسير ما صرح بشكل مباشر إلى السنة التاريخية وعملها بحسب طرح الآية الكريمة، وإن المقصد هو تكرار تلك السنة وسموها سنة من مضى من النبيين والمؤمنين،[3] أو حسب قول ابن زمنين: (سنن الذين مضوا من قبلكم)[4] ؛ أي إن الآية ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ﴾ تعني السنة التي تأخذ بنظر الاعتبار البلاء الذي أصاب مؤمني الأمم الخالية وفلسفة ذكره من القرآن الكريم.[5] وهذه استدعاء إلى الصبر وبعده الوعد.[6]

وفي المجمل فإن الخطاب يفصح عن تلك الحركية ويخاطب أهل الإيمان، ومن ثم فإنه يخاطب كل الفئات وباختلاف الأطر الزمانية والمكانية، ولكنه من باب التخصص أولاً، ولكون الفئة المحددة تمثل الكمال الإنساني من

---

(١) البقرة/ ٢١٤.

(٢) تفسير الرازي، ج ٦، ص ٢٠.

(٣) الثعلبي، تفسير الثعلبي، ج ٢، ص ١٣٥.

(٤) ابن زمنين، تفسير ابن زمنين، ج ١، ص ٢١٥.

(٥) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل، ج ١، ص ١١٢.

(٦) الطوسي، تفسير التبيان، ج ٢، ص ١٩٨؛ الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٦٨-٦٩.

جهة أخرى؛ وهذه الفئة مقصودة في الطرح القرآني، إذ دعا القرآنُ إلى السَّيْر في الأرض، وكان الغرَضُ من ذلك التأكُّدَ من فاعليَّة السُّنن التي نَظَّر لها وأصَّلَها في ثنايا آياته، والامتداد والاكتشاف لِسُنن أخرى بطريق الاستِقْراء والملاحظة، وقص علينا القَصص القرآنِيَّ الَّذي يُمثِّل طريقاً لإدراك القوانين والسُّنن التي تَحْكم التجمُّع الإنساني، وكان الجامعُ في كلِّ ذلك الإيمانَ والهُدى؛ لِيُقرِّر لنا أنَّ عالَم الشهادة لا تستطيع تِلْكم السُّنن حَكْمَه إلاَّ بربطه برابط الإيمان، وهذا يَجْعلنا نقف على الحقيقة الكبرى؛ أنَّ التوحيد هو المقصد الكلِّي من الوجود.[1] بمعنى إن اختيار المؤمنين جاء بناءً على منطق الكلية والجزئية؛ فالإيمان يمثل الكل الذي تنتمي له كل التفاصيل والفئات المكونة للحدث التاريخي، وإنه الشرط والضابطة التي تحكم هذا المنطق.

ليظهر ذلك الحيز التطبيقي الذي يدخل ضمن العلوم الإنسانية؛ فالمراد بالآية هو: "هل حسبتم أنكم أيها المؤمنون بالله ورسله تدخلون الجنة، ولم يصبكم مثل ما أصاب من قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار، فتبتلوا بما ابتلوا واختبروا به من البأساء وهو شدة الحاجة والفاقة، والضراء وهي العلل والأوصاب، ولم تزلزلوا زلزالهم، يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدة وجهد حتى يستبطئ

(١) د. فارس العزاوي، قراءة في كتاب السنن الإلهية في الأمم والأفراد، ص ٣.

القوم نصر الله إياهم، فيقولون: متى الله ناصرنا. ثم أخبرهم الله أن نصره منهم قريب، وأنه معليهم على عدوهم، ومظهرهم عليه، فنجز لهم ما وعدهم، وأعلى كلمتهم، وأطفأ نار حرب الذين كفروا".[1]

لقد جمع هذا الخطاب القرآني مجمل الأفكار المكونة للسنن التاريخية بما فيها الفلسفة والغاية من طرحها وتوجيهها تربوياً، ومنها ما يتعلق بنطاق الموضوع الخاص بالحيوية والتي تقوم هنا على جملة أمور:

الأمر الأول: إن هذا الخطاب القرآني أكد على التخطيط الإلهي الذي يمثل المحور الذي تدور عليه كل الأحداث بغض النظر عن الزمان والمكان.

الأمر الثاني: إن الشمولية والحيوية في السنن التاريخية هي المفسر لاستدعاء الصبر في هذه الآية، وهذا الاستدعاء بمثابة الدعوة لتحكيم السنن التاريخية .

الأمر الثالث: إن هذه الحيوية والحركية إشارة إلى مراحل عدة خاتمتها أثر ونتيجة تمثل وعداً مطلقاً بالنصر إذا ما سارت هذه المراحل وفق الاستدعاء المطلوب.

لقد ميّز القرآن الكريم السنن التاريخية التي ترتبط بتلك الحركية ووفق الشروط المميزة لها على شكل ضوابط ومحددات، وهذه الضوابط هي التي

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٢، ص ٤٦٣.

تحقق قيام السنة وظهور المستوى التطبيقي فيها، وباستقراء بسيط يمكن أن نبين أهم تلك الضوابط والاعتبارات لتوضيح الصورة:

الضابطة الأولى: تغيير ما بالنفس، وهي شرط أساس في حصول الحركية والتطبيق العملي للقواعد والنواميس الإلهية التي تأخذ الطابع التاريخي وتدخل في إطار العلوم الإنسانية؛ إذ توافر مثل هذه الضابطة يفعّل سنة التمكين والاستخلاف وما شابه، وهذه الضابطة كفيلة برفع الظلم عن المتعقلين المتفكرين، وهو ما قصده قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.[2]

وإذا ما ربطنا دور الإنسان في قيام السنة -ونقصد تفكره وتعقله فيها- أمكننا فهم الأمور بشكلها الواقعي، لا أن تدخل السلوكيات والمزاج كشرط في السنن وهذا ما مرّ من أنه يمثل التحدي الملموس للسنة؛ ومن هنا فمعنى الآيات الكريمة إن الله تعالى أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل، والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ويعدلوا عن الكفر، فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر، فقد غيروا نعمة الله تعالى على أنفسهم؛ فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم والمنح بالمحن. قال: وهذا من أوكد ما يدل على أنه تعالى لا يبتدئ أحداً بالعذاب

(١) الأنفال/ ٥٣.

(٢) الرعد/ ١١.

والمضرة، والذي يفعله لا يكون إلا جزاءً على معاصٍ سلفت،[١] وإن سائر الآيات دلت على أنه تعالى لا يبتدئ بالتعذيب والإهلاك لقوله تعالى في الآية المذكورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢]، وذلك لأن الفيض الإلهي عام متصل كالماء الجاري،[٣] مع الأخذ بنظر الاعتبار إن هذا التغيير مرتبط بالإصرار على الكفر أو الظلم أو الذنوب عموماً؛ فإن أصروا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النقمة، وتزول عنهم الحفظة المعقبات.[٤] والذي يلاحظ في هذا المقام إننا يمكن أن نفهم هذه الآيات بشكل معاكس أيضاً، وهو أنه ممكن للإنسان أن يعكف على إزالة النقم والعذاب عن نفسه، والناجم أساساً من أعماله السيئة، وذلك بتغيير هذه النفس الأمارة ليستحق رفع العقوبة والإمداد بنعم الله سبحانه وتعالى.

الضابطة الثانية: التقوى، وهي ضابطة تترتب عليها الكثير من الأمور والآثار التطبيقية في سنن التاريخ، ويمكن إجمال هذه الآثار الحركية بما يأتي:

---

(١) الرازي، تفسير الرازي، ج ١٥، ص ١٨١.

(٢) الرازي، تفسير الرازي، ج ٢٠، ص ١٧٥.

(٣) ابن عربي، تفسير ابن عربي، ج ١، ص ٣٦٢.

(٤) القرطبي، تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٢٩٢.

- **الأثر الأول: المخرج من الضيق:** وقد جسد القرآن الكريم هذا المخرج وأنواعه وما يترتب عليه إذ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1]؛ أي يجعل له مخرجاً من الشدة إلى الرخاء ومن الحرام إلى الحلال ومن النار إلى الجنة؛ فمن صبر واتقى الحرام جعل الله له مخرجاً من الضيق.[2] وقيل مخرجاً من كل أمر ضاق على الناس، إذ إن من يصبر على المصيبة يجعل الله له مخرجاً من النار إلى الجنة.[3] ونجد هنا لغة التعميم على كل أمر وضيق يصيب الإنسان إن التقوى هي الميزان الذي يفاضل بين الناس.
- **الأثر الثاني: الرزق** :وهو يتعلق بالجانب المادي والمعنوي، ولا يقتصر على مناسبة أو حادثة نزول، وهو ما يفسر تعدد الآيات القرآنية التي طرحت حوله والتي انسجمت وتناغمت مع التقوى كشرط مؤثر في حركية السنة التاريخية ومن ثم استحصال النتائج التطبيقية من هذه القاعدة والقانون.

---

(١) الطلاق/ ٢-٣.

(٢) الواحدي، تفسير الواحدي، ج ٢، ص ١١٠٧.

(٣) الرازي، تفسير الرازي، ج ٣٠، ص ٣٤. وينظر: ابن عربي، تفسير ابن عربي، ج ٢، ص ٣٢٩-٣٣٠.

ولعل الآيات المقصودة صريحة جداً في هذا المقام كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءُ وَالأَرْضِ﴾[1]؛ فجعل تعالى التقوى من أسباب الرزق كما في هذه الآية،[2] فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل ما يحتاج إليه في الدنيا على سبيل التبعية.[3]

كما لا ننسى الآية السالفة عن التقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[4]، فالرزق هنا أثر واضح من الحركية والحيوية في التطبيق؛ فيقصد بالرزق أن (يرزقه) ثواب جنة النفس وأنوار الفضائل من عالم الغيب من حيث لا يحتسب لعدم وقوفه منها، ومن يتقيه في أفعال نفسه يجعل له مخرجاً إلى مقام التوكل ويرزقه تجليات الأفعال من حيث لا يحتسب، ومن يتقيه في صفات نفسه يجعل له مخرجاً إلى مقام الرضا ويرزقه روح اليقين وثمرات تجليات الصفات الإلهية في جنة القلب من حيث لا يحتسب لعدم شعوره بها.

الأثر الثالث: اليسر في الأمور :وهذا الأثر المنطقي يكاد يكون تحصيل حاصل في كل الأمور الإيجابية التي يقوم الفرد بها، إلا أن باب التخصص هنا هو في كونها أثراً لجريان السنة التاريخية وتطبيقاتها العملية؛ فقد قال

---

(١) الأعراف/ ٩٦.

(٢) القرطبي، تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٢٤١.

(٣) الرازي، تفسير الرازي، ج ٣، ص ١٣٧.

(٤) الطلاق/ ٢-٣.

سبحانه وتعالى في محكم كتابه المجيد: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[1] أي ييسر الله عليه في أمره، ويوفقه للعمل الصالح، ويسهل الله عليه أمر الدنيا والآخرة.[2] والتقوى في هذا المقام هي الاجتناب عن الذنوب مما يجعل لذلك المتقي من أمر سلوكه (يسراً)، ومتى ما راعى آداب مقامه واجتنب ذنوب حاله في المواطن تيسر له الترقي منه إلى أعلى.[3]

الأثر الرابع: تكفير السيئات وتعظيم الأجر: إذ إن التقوى كفيلة بتفعيل السنة التاريخية والحيوية والحركية فيها وتكفير السيئات على أرض الواقع؛ فقد كانت إشارة الآيات القرآنية صريحة لهذا الأثر وهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾[4]، وسيئاته هي موانعه وهيئات نفسه الحاجبة عن الفيض، المانعة للمزيد، بينما يكون تعظيم الأجر بإفاضة ما يناسب حاله بحسب القبول والاستعداد الجديد من الكمال.[5]

الضابطة الثالثة: الاستقامة: وهي مقدمة طبيعية للوصول للكمالات وللخير الكثير؛ فلا عجب أن تكون شرطاً وضابطة لجريان ونفاذ السنة التاريخية، ومن هنا فقد جاءت الآية القرآنية الكريمة لتأكيد هذه

---

(١) الطلاق/ ٤.

(٢) الرازي، تفسير الرازي، ج ٣٠، ص ٣٦؛ الواحدي، تفسير الواحدي، ج ٢، ص ١١٠٨.

(٣) ابن عربي، تفسير ابن عربي، ج ٢، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٤) الطلاق/ ٥.

(٥) ابن عربي، تفسير ابن عربي، ج ٢، ص ٣٢٩-٣٣٠.

الحقيقة إذ قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾[١]؛ فلو استقاموا لاستحصلوا الخير والبركات،[٢] ولوسعنا عليهم في الدنيا بفعل هذه الاستقامة، وهذا التوسيع يتعلق بإفاضة الخير وهو ما يدل عليه الماء الغدق.[٣] وينبغي أن نعرف أن الاستقامة كضابطة لا تمثل لفظاً مادياً وإنما هي صورة المؤمن الذي اختط له مسار الكمال.

إن تلك الحيوية والحركية إنما قامت على وجود التنوع في السنن، والذي من طبيعته التجدد الزمني بفعل توافر الظروف المهيأة والمحركة، والتي تستند بالأساس على الطبيعة البشرية مما خلق الأجواء والعوامل المساعدة على ذلك التجدد في جريان السنن؛ ومن هنا برز هذا التنوع فيه، والذي يمكن دراسته من خلال الخوض في تلك الأنواع ومنها **سنة الاستبدال** التي تعكس الحيوية والحركية؛ إذ إن هذه السنة تُبنى في حركتها وتطبيقها على فكرة تعويض المستضعفين ووراثتهم الأرض، وقد جسد القرآن الكريم هذه السنة وحيويتها واطرادها في كل زمان بآياته الكريمة ومنها قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ﴾.[٤] والاستضعاف هنا بالإذلال والإهانة

---

(١) الجن/ ١٦.

(٢) الرازي، تفسير الرازي، ج ٣٠، ص ١٦٠.

(٣) القرطبي، تفسير القرطبي، ج ١٩، ص ١٧.

(٤) القصص/ ٥.

والاستعمال في الأعمال الطبيعية والاستخدام في تحصيل اللذات البهيمية والسبعية وذبح الأبناء واستحياء النساء وهو ما قام به فرعون مع بني إسرائيل؛ فنجاهم الله من العذاب، وجعلهم وراث الأرض وملوكها بإفناء فرعون وقومه.[1] والجدير بالذكر إن قاعدة الاستبدال متجددة حتى بعد قوم بني إسرائيل؛ فالظلم واحد والتصدي بحسب مقام المتصدي، فتكون الوراثة والاستبدال هي الصورة العاكسة لطبيعة الأقوام في كل زمان ومكان؛ فما يطرحه القرآن لا يتعلق بأسباب النزول قدر تعلقه بالتثقيف العام، وهو تثقيف تعبوي كما أسلفنا.

ومن الآيات الأخرى التي أشارت إلى نفس إطار هذه السنة قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾.[2] وهي تقوم على نفس الفكرة والاتجاه الشمولي الحيوي المتحرك.

ونجد في محور آخر بياناً للاتجاه العكسي من هذه السنة؛ إذ إن إيحاءاته موجهة إلى الظلمة والسلاطين والحكومات الظالمة، وإلقاء الحجة عليهم قبل استبدالهم ومن ثم جريان سنة الاستبدال، ومصداق ذلك قوله تعالى:

---

(١) ابن عربي، تفسير ابن عربي، ج ٢، ص ١٠٩. ينظر: الطبري، جامع البيان، ج ٢٠، ص ٣٥.

(٢) الأعراف/ ١٣٧.

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[1]، وكذلك قوله تبارك اسمه: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.[2]

وتتبلور هذه السنة جلية في سقوط الحكومات والقيادات وقيام الأخرى مقامها، وانحطاط الأمم والجماعات وحلول أخواتها محلها؛ فإذا عهد الله إلى أمة أو جماعة برسالة، أو إلى حكومة أو قيادة بمسؤولية، فإن كانت تؤدي رسالتها وتقوم بمسؤوليتها أبقاها على منصبها، وأدام لها نعمتها التي خوَّلها، ووفَّر لها أسباب البقاء، وأفسح لها مجال العمل، وإن تهاونت في الاضطلاع بها، أو قصَّرت في أدائها، أو أعرضت عنها وتولت، أو ظلمت وطغت، استبدل بها أخرى صالحة للقيام بالمسؤولية، نشيطة في أدائها، تختلف كل الاختلاف عن سابقتها.[3]

وترتبط **سنة الاستخلاف والتمكين** بنفس المسار مع سنة الاستبدال السابقة، ولا سيما بالجزء الخاص بالتجدد والحركية وبالأثر المتعلق بالتمكين الذي هو إعطاء ما يصح به الفعل مع رفع المنع؛ لأن الفعل كما يحتاج إلى القدرة فقد يحتاج إلى آلة وإلى دلالة وإلى سبب، ويحتاج إلى

---

(١) محمد/ ٣٨.

(٢) التوبة/ ٣٩.

(٣) محمد ساجد القاسمي، استبدال الأمم والحكومات من السنن الإلهية، ص ٢.

ارتفاع المنع، فالتمكين عبارة عن جميع ذلك،[١] مما يفسر قول الباري عز وجل في هذا الإطار: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[٢]، وهو إخبار من الله عما ستكون عليه سيرة المؤمنين إن مكنهم في الأرض وبسط لهم في الدنيا،[٣] والتمكين في البلاد إعطاء المكنة[٤] وفق ما يترتب من أعمال العباد واستحقاقاتهم.

وقد بُني هذا التمكين على الاستخلاف المسبق المعد من الله للإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.[٥] أي إن هناك علاقة مباشرة بين الاستخلاف والتمكين تقوم على ما يأتي:

أولاً: إن الإنسان مستخلف في الأرض أصلاً، وما يأتي بعد ذلك هو سلوك متفاوت بين البشر بشكل يوظف سنة التمكين لتتناغم مع مقام المستخلف من الله تعالى.

---

(١) الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٢٢.

(٢) الحج/ ٤١.

(٣) النسفي، تفسير النسفي، ج ٣، ص ١٠٦.

(٤) النسفي، تفسير النسفي، ج ١، ص ٣١٣.

(٥) البقرة/ ٣٠.

ثانياً: إن الاستخلاف والتمكين يقومان بالأساس على شروط واحدة تقتضي الرعاية الإلهية إذا سارت بالمسار الإيجابي، بينما تقيد وتحدد إذا سلكت طريقاً آخر مجانباً.

ثالثاً :عَدُّ التجربة المنطلق الابتدائي في حركية السنة التاريخية والبناء عليها، وهو الأمر الذي يفسر لنا ربطها بالعمل الصالح وفعل الخيرات.

النوع الآخر من السنن التي تجسد الجانب الحركي التطبيقي في التاريخ هو **سنة التدافع**، والتي تعني تصدي فئة من الناس في كل زمان للشر بأنواعه كافة، بشكل يدفع هذا الشر عن الباقين، وهو عين ما أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]. والصوامع هي صوامع الرهبان، وأما البِيَع فكنائس النصارى، وأما الصلوات فكنائس اليهود، وأما المساجد فمساجد المسلمين؛ والمعنى على هذا: لولا أن الله جل وعز يدفع بعض الناس ببعض، لهدم في وقت كل نبي المصليات التي يصلى فيها.[2]

والتدافع يحتمل عدة معانٍ وهو وسيلة للحيوية والحركة والنمو وانطلاق الطاقات وله صوره ودرجاته المتعددة؛ بداية من الحوار ومروراً بالجدل والمناظرة والمنافسة والسباق والمواجهة والمغالبة وانتهاءً بالصراع أو القتال.

---

(١) الحج/ ٤٠.

(٢) النحاس، معاني القرآن، ج ٤، ص ٤١٧-٤١٨.

وكما نرى فإن صور التدافع مشروعة، كما أنها في نفس الوقت محكومة بضوابط من شرع الله، وحتى الصراع أو القتال فقد كتب على المسلم وهو كره له ولكنه محكوم أيضاً بضوابط.[١]

ويمكن أن يترجم هذا الضرر الذي يصيب الأرض في حال عدم جريان سنة التدافع بالآية القرآنية المباشرة لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢]. ويعني تعالى ذكره بذلك: ولولا أن الله يدفع ببعض الناس -وهم أهل الطاعة له والإيمان به- بعضاً -وهم أهل المعصية لله والشرك به- كما دفع عن المتخلفين عن طالوت يوم جالوت من أهل الكفر بالله والمعصية له، وقد أعطاهم ما سألوا ربهم ابتداءً من بعثة ملك عليهم ليجاهدوا معه في سبيله بمن جاهد معه من أهل الإيمان بالله واليقين والصبر (جالوت وجنوده)، لفسدت الأرض؛ يعني لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم، ففسدت بذلك الأرض، ولكن الله ذو مَنٍّ على خلقه، وتطول عليهم بدفعه بالبَرِّ من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر.[٣]

---

(١) د. مجدي قرقر، التدافع الحضاري بديلاً عن الصراع، ص ٣.

(٢) البقرة/ ٢٥١.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج ٢، ص ٨٥٤. وقد عُرف التدافع بالتنوع حسب الطرح القرآني؛ فتارة جاء بمفهوم التعايش والتعارف لقوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ (المؤمنون/ ٩٦)، وقوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فصلت/ ٣٤)، وتارة أخرى الدفع بمفهوم إزاحة الضرر والسوء لقوله تعالى: ﴿وقيل

ولعل هذه السنة أكثر المصاديق تطبيقاً في عصرنا الحاضر؛ فتارة يكون التدافع بفرد عن فرد وتارة بمؤسسة عن أخرى وتارة ثالثة بدولة عن دولة، وهكذا المهم في الأمر إن هذه السنة أخذت مجالها الحيوي الحركي بفعل توافر البيئة التي لا يكاد يخلو منها زمان ومكان.

ومثلت **سنة الاستدراج** محوراً آخر من المحاور الحيوية الحركية التطبيقية؛ إذ لا ننسى أنها مرتبطة أيضاً بغيرها من السنن، ويقصد بها استدراج المنحرفين بفتح الباب أمامهم لأن الإنسان غير مجبر، وإنما هو من يسلك الطريق الذي يراه متناسباً مع هواه أو مع عقله، وهو الأمر الذي أشارت له الآية القرآنية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.[1] بمعنى أنه لا يظنن الذين كفروا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله أن إملاءنا لهم خير لأنفسهم؛ ويعني بالإملاء: الإطالة في العمر والإنْساء في الأجل،[2] إنما نؤخر آجالهم فنطيلها ليزدادوا إثماً؛ يقول: يكتسبوا

لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا﴾ (آل عمران/ ١٦٧). ينظر: د. مجدي قرقر، التدافع الحضاري بديلاً عن الصراع، ص ٦.

(١) آل عمران/ ١٧٨.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٤، ص ٢٤٦.

المعاصي فتزداد آثامهم وتكثر، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يقول: ولهؤلاء الذين كفروا بالله ورسوله في الآخرة عقوبة لهم مهينة مذلة.[1]

وهنا بيان لعاقبتهم وهي العذاب المهين؛ فالاستدراج سنة تتجدد كلما وجد أمثال هؤلاء الذين طُبع على قلوبهم، فيعتقدون إن الله يطيل في أعمارهم لمكانتهم ومقامهم، بينما هم يُستدرجون في مسار الشر من تلقاء أنفسهم؛ لأن الله تعالى يتركهم وعملهم وهذا هو الإملاء، بينما يوفق الساعي في عمل الخير.

إن نظرة سريعة وعميقة لتلك الحيوية في السنن التاريخية تضعنا أمام صور عدة تشير إلى ذلك الارتباط والتناغم بينها بشكل يؤطر تطبيقها بإطار الرعاية الإلهية، ومن هذه الصور:

الصورة الأولى :ارتباط جميع السنن المذكورة بالعمل الصالح والتقوى، وتطبيق شرع الله في أرضه .**الصورة الثانية** :وجود التكاملية بينها بشكل يضمن وجودها جميعاً وتحققها بتحقق إحداها .**الصورة الثالثة** :اتضاح الفلسفة والغاية منها بشكل جلي، ونقصد الفلسفة التعبوية التثقيفية، التي تضمن البناء التربوي وتحقق التجربة .**الصورة الرابعة** :تطبيقها النخبوي في صورتها العامة، أي اعتماد تطبيقها على نخبة تظهر في كل زمان وتأخذ على عاتقها الجانب الحركي.

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٤، ص ٢٤٨.

الفصل الثاني
تجليات السنن التاريخية في البناء الاستراتيجي

ترتكز الموضوعات التي تزاوج بين المفاهيم القرآنية الأصيلة والمفاهيم المعاصرة المستحدثة على قواعد تنماز بالثبات والموضوعية؛ ذلك أن أساسها الفكري ينهل من معين التثقيف والتنمية الهادفة، وغايتها الأسمى هي بناء الوعي وتعميقه وتدبر المقاصد العليا. ومن أبرز هذه المفاهيم ما يخص السنن التاريخية في القرآن الكريم، بما تحمله من رؤى فلسفية عميقة تتجاوز في جوهرها حدود الزمان الضيقة وأطر المكان المحصورة.

ويأتي هذا الفصل ليكون محاولة استقصائية لبحث تجليات هذه السنن بجوانبها كافة في "البناء الاستراتيجي"، بوصفه مفهوماً حديثاً قائماً على قواعد علمية تتفاوت آثارها تبعاً لمقدماتها. ولا نرمي هنا إلى إطلاق أحكام قطعية عليها من حيث السلب أو الإيجاب، وإنما ننظر إليها بنسبيةٍ تحتكم إلى مقدار توافقها وتناغمها مع القواعد الفكرية التنموية، وهي -بلا ريب- قواعد القرآن الكريم الراسخة.

لقد استهللنا البحث بتأصيل طبيعة مفهوم هذه السنن كما ورد في الفصل الأول من هذا الكتاب، مبيّنين مرتكزاته القرآنية التي لا تتزعزع، ثم انتقلنا إلى دراسة تجلي الخصائص المميزة للسنن ومدى تناغم خصائص البناء الاستراتيجي معها. وقد انتظم هذا الطرح تحت عنوان: "**الثبات والاطراد بين سنن التاريخ القرآنية وبناء الاستراتيجيات**"؛ إذ إن ما قررناه آنفاً حول الثبات والاطراد يظل هو العامل المحرك والناظم لهذه الدراسة

برمتها، تماماً كما هي السنن في أنواعها وفلسفتها، فهي المحور الذي تدور حوله الأفكار الاستراتيجية جميعاً.

أما الجزء الآخر من هذا الفصل، فقد اختص بسبر أغوار المعايير التي تحكم جريان السنن التاريخية وتجلياتها في الاستراتيجية قيد البحث؛ أي دراسة تجليات معايير التقنين الفكري للسنن في بنية الاستراتيجية.

ولم نغفل في مسعانا هذا عن تتبع المعطيات والآثار التي ترتبت على تلك التجليات، ومن ثم انعكاسها على البناء الاستراتيجي؛ ونعني بها "آثار ومعطيات تجلي السنن في بناء الاستراتيجية". وبالمحصلة النهائية، فإن البناء الاستراتيجي القائم على تلك المعطيات والآثار، والمستند إلى ذاك التجلي الإلهي، سيكون -حكماً- بناءً ذا طابع تنموي، مؤثراً وعميقاً في وجدان الأمة وواقعها.

المبحث الأول
مفهوم السنن القرآنية ومرتكزاته الفكرية

من المناسب التذكير بما أشرنا إليه سابقاً لعلاقته الوثيقة بهذا الفصل؛ إن المعنى اللغوي للسنّة لا يخرج عن إطارها القرآني الشمولي، فالسنة في اللغة هي الطريقة.[١] قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾[٢]، والمقصود هنا في تحكيم القانون والشرع وهو ما سار عليه الماضون[٣]، وسنَّ الله سنةً أي بيَّن طريقاً قويماً.[٤]

ويرى محمد إسماعيل إبراهيم إن السنن التي نحن بصددها هي القوانين والقواعد التي تخص الإنسان وحركته عبر الزمن، وقد ذكرها القرآن الكريم وثقّف لها بسبب حيويتها واطرادها وثباتها كالقانون العلمي؛ فالقرآن الكريم ثروة من العلوم والمعارف وكنز من القوانين والنواميس التي أودعها الله في الكائنات والمخلوقات، وهي السنن الكونية، وهذه السنن والقوانين التي أوجدها الله في ملكوته بحكمته، وأجراها بتدبيره قد استطاع الإنسان المفكر أن يهتدي إلى بعض منها بتوفيق من الله.[٥]

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ٢٢٦.

(٢) الأحزاب/ ٦٢.

(٣) الرازي، تفسير الرازي، ج ٢٥، ص ٢١٢.

(٤) الرازي، تفسير الرازي، ج ٢٥، ص ٢١٢.

(٥) محمد إسماعيل إبراهيم، القرآن وإعجازه العلمي، ص ١٦٩.

ولعل ما يميز هذه السنن هو علميتها بوجود المرتكزات الرصينة لقيامها؛ فهي مسندة بقواعد متينة قائمة على أساس هندسي مترابط ومتكامل ولا يمكن التشكيك بهذا الأساس لأنها تحت الرعاية التي ترعى النواميس بتقديرات حتمية وهي الرعاية الإلهية.

نقصد بهذه المرتكزات ما يتعلق بمركز الثبات الذي تحققنا منه في الصفحات السابقة وعدم التغير بأي طارئ خارجي ما عدا مشيئة الله تعالى، والمرتكز الآخر الحيوية والاطراد؛ أي الحركية والتكرار دون حدود زمنية، لأن التأكيد على طابع الاطراد في السنّة تأكيداً على الطابع العلمي للقانون التاريخي؛ لأن أهم قانون يميز القانون العلمي عن بقية المعادلات والفروض هو الاطراد والتتابع وعدم التخلف[1].

والسنن التاريخية هي النوع الرئيس بين أنواع السنن القرآنية، بمعنى إن السنن هي إلهية بمجملها، ولكنها متنوعة في الوقت نفسه؛ فتارة هي سنن وقوانين كونية كما هو الحال مع الكواكب والمجرات والظواهر والمظاهر الكونية الأخرى، وتارة ثانية هي السنن التي تتعلق بطبيعة الإنسان البيولوجية والفسلجية وهي سنن تخضع لنفس الضوابط وتقوم على المرتكزات نفسها، فضلاً عن السنن والقوانين الرياضية وهي قوانين تمتاز بثباتها تبعاً لثبات قوانين الطبيعة.

---

(١) الصدر، السنن التاريخية، ص ٦٩.

من هنا، وبين هذه القوانين تظهر القوانين التاريخية أو ما تسمى السنن التاريخية وهي نواميس وإن كانت اجتماعية أو إنسانية، إلا إنها قامت على مرتكزات ثابتة وقد تعامل معها القرآن الكريم على هذا الأساس عندما أشار إليها بالصفة الحتمية للجريان عندما ذكر قصص الأمم السالفة وبنى هذا الجريان على أساس القاعدة والقانون الذي ربطه بالأثر والنتيجة كما سنجد في الموضوعات اللاحقة.

إن تكرار ذكر هذه المرتكزات في كل مقام هو أمر مقصود لأنها معيار لفحص الفكرة التي نريد الإشارة إليها والمتعلقة بهذا الفصل كما سنرى.

المبحث الثاني

الثبات والاطراد بين السنن التاريخية وبناء الاستراتيجيات

الاستراتيجية هي مجموعة السياسات والأساليب والخطط والمناهج المتبعة من أجل تحقيق الأهداف المسطرة[(١)]، وهو لفظ استخدم منذ عدة قرون في العمليات الحربية، أصله يوناني يعني فن القيادة.[٢]

وصحيح إن المصطلح يعود للقرن الثامن عشر وقد اختص بالإدارة العسكرية، إلا إن دخول الجوانب الأخرى في هذا المفهوم توضح وظهر في منتصف القرن العشرين وبالتحديد في عام ١٩٥١، وبعد عشر سنوات بدأت صياغة قواعد التخطيط الاستراتيجي وتطورت في الثمانينيات لتتوسع جوانبها في تسعينيات القرن نفسه[٣]. وقد صيغ المصطلح الإنجليزي من الأصل اليوناني ليظهر مصطلح (strategy) والذي يدل على القيادة وفنها في الميدان العسكري ليتوسع بعد ذلك إلى جملة قرارات الإدارة وتخطيطها.[٤]

---

(١) ويكيبيديا.(ar.m.wikipedia.org)

(٢) محمود خالد سعد، نشأة مفهوم الاستراتيجية.(ae.linkedin.com)

(٣) محمود خالد سعد، نشأة مفهوم الاستراتيجية.(ae.linkedin.com)

(٤) صونية كيلاني، مساهمة في الأداء بتطبيق الإدارة الاستراتيجية، ص ١٦.

إن من أهم خصائص الاستراتيجيات هي الشمولية أو الاطراد[١]، والشمولية في الاستراتيجية هي مستقبلية من ناحية الزمن[٢]، وهي عمومية بمشاركة الكل.[٣]

وتقوم الاستراتيجية على محفزات عمل تقوم على قواعد مدروسة قد تسمى ثابتة لأنها تقوم على محددات وضوابط تخضع لعمليات البحث والتدقيق حتى ظهر ما يسمى بالثبات الاستراتيجي والذي يعرف على أنه توازن قوي يتم الحفاظ عليه على مدى فترة طويلة من الزمن على الرغم من تأثير العوامل المزلزلة للثبات[٤]، والثبات الاستراتيجي يبنى على خطط وعوامل تعمل على تحفيز العاملين ويساعد على التنمية المستدامة.[٥]

وهنا يكمن التجلي القرآني لسنن التاريخ بعنصري الثبات والاطراد وتناغمهما مع عناصر البناء الاستراتيجي التي تعتمد على هذين العنصرين وإن كان الأمر نسبياً، فهو محاولة منهم لصياغة استراتيجية بهذه الخصائص والمواصفات التي أسس لها القرآن الكريم.

---

(١) صونية كيلاني، مساهمة في الأداء بتطبيق الإدارة الاستراتيجية، ص ١٦.

(٢) صونية كيلاني، مساهمة في الأداء بتطبيق الإدارة الاستراتيجية، ص ١٦.

(٣) صونية كيلاني، مساهمة في الأداء بتطبيق الإدارة الاستراتيجية، ص ١٦.

(٤) علي فالح السيلاوي، دور الثبات الاستراتيجي في تعزيز الأداء المنظمي، ص ٦٣٧.

(٥) علي فالح السيلاوي، دور الثبات الاستراتيجي في تعزيز الأداء المنظمي، ص ٦٣٧.

لقد أضاف القرآن الكريم لفظة سنة إلى اسم الجلالة أي (سُنَّةَ اللَّهِ) لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1]، وهي طريقته وعادته سبحانه وتعالى التي قد مضت في الأمم من نصر أوليائه على أعدائه[2]، بمعنى إن الثبات هو الخاصية والميزة الواضحة التي أظهرت بها السنة، ومن هنا فإن بناء الاستراتيجية بجوانبها كافة ممكن، بل يجب أن يخضع للأسس والقوانين الإلهية التي صيغت على شكل سنن ومنها السنن التاريخية.

والحال نفسه ينطبق على الآية القرآنية الشريفة: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾[3]، أي إن الآخرين سيمضون على آثارها وسيحكمهم الثبات نفسه في القانون، ومن ثم عليهم أن يحققوا البناء الاستراتيجي الواعد القائم على تجنب ما يتعارض مع هذا القانون الإلهي والعمل بمعاييره التي تحقق الهدف الذي يرنو إليه من يضع هذه الخطط الاستراتيجية دون فرق بين الجانب الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي... إلخ.

وامتناع السنن من التحويل كما في المنطق القرآني هو دليل آخر على الثبات في البناء الاستراتيجي القائم على السنن؛ إذ قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ

---

(١) الفتح/ ٢٣.

(٢) الدكتور محمد السيسي، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، ص ٧.

(٣) الأنفال/ ٣٨.

أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[1]. أي لن تجد لسنة الله في خلقه تبديلاً[2]، أو تحويل حكم من أحكام هذه السنة عند جريانها، فلا يمكن أن يكون الحكم على البناء الاستراتيجي القائم على هذا الثبات إلا ناجحاً، بل ومتميزاً.

وقد ميّز الرازي بين المصطلحين، فالتبديل جاء بمعنى حصول العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره، أما التحويل أي حصول العلم بأن العذاب -مع أنه لا تبديل له بالثواب- لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسيء.[3]

ومن الآيات الأخرى الدالة على عدم التبديل قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ

(١) الإسراء/ ٧٧.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٢٢، ص ١٧٦.

(٣) تفسير الرازي، ج ٢٦، ص ٣٥ – ٣٦.

(٤) الأنعام/ ١١٥.

(٥) الكهف/ ٢٧.

الْمُرْسَلِينَ﴾[1]، وكذلك قوله جل وعلا: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.[2]

وعليه يمكن القول إن الثبات يقوم على فلسفة تبريرية يمكن إجمالها بالأمور الآتية:

- **الأمر الأول:** إن الثبات دليل وبرهان على وجود الصانع الذي لا يوازيه بانٍ أو مخطط أو واضع للقوانين والنواميس والاستراتيجيات.
- **الأمر الثاني:** إن ذلك الثبات هو تعبير فكري عن مستوى العدالة والذي تحول فيها القانون إلى معيار لا يحكمه فارق زمني.
- **الأمر الثالث:** إنه فرصة وخبرة مجانية للارتقاء وتحقيق الأهداف وهو ما قد لا يتحقق بالقانون الوضعي المحكوم بأمور كثيرة.

أما بالنسبة لمبدأ الاطراد والشمولية والذي تقوم عليه الاستراتيجية الحديثة، وقد أسلفنا بيان شموليتها الزمنية وعمومية أصنافها دون تحدد وتضييق رغبة في التكامل والحصول على النتائج، وهو الأمر الذي يعد خصيصة أساسية من خصائص السنن التاريخية، بل هي تمثل الإطلاق الذي لا يعتريه أي شك أو تبدل أو تحول وبحسب المنطق القرآني.

---

(١) الأنعام/ ٣٤.

(٢) يونس/ ٦٤.

وهذا يعني أن أرباب العلوم يحكمون على الميدان التطبيقي لعلم ما بوساطة طابع الاطراد، فإذا توافر فيه حُكِم عليه بوجود الطابع العلمي للقانون، وهو سر عدِّ علم التاريخ والعلوم الاجتماعية خاضعة لهذا النوع من القوانين.

وأوضح وأكثر ما يدلل على هذا التكرار الزمني -وهو عين ما يحتاجه من يبني الاستراتيجيات- هو ذلك التوجيه القرآني في إثبات حتمية السنة وتكرارها، إذ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.[1]

والخلاصة إن البناء الاستراتيجي يعتمد ويتبنى هذه الشمولية التي تحقق له الجريان كما إنها تحقق الجريان للسنن التاريخية والتي قدمها القرآن الكريم على شكل قصص وتجارب للأمم القديمة، ولكنها مثلت خبرات مجانية للناس على وجه العموم وعلى مختلف الأزمنة وأساسها المستقبلية منها.

ولعل اجتماع عنصري الثبات والاطراد -وهما أساس القانون والسنن التاريخية- يمكن أن يكون المقدمة الصحيحة للبناء الاستراتيجي وبما يحقق التناغم بين هذا الجانب وذاك وعلى وفق الأحكام الإلهية التنموية

(١) البقرة/ ٢١٤.

البناءة والتي ترسم المديات المستقبلية دون أن يكون الزمن حاكماً عليها، وإنما فقط الذي يتبدل هو الآليات التي قد تتلاءم وتتناغم في عصر معين وتحتاج إلى التطوير والتعديل في عصر آخر مع حتمية الحفاظ على الضوابط.

المبحث الثالث
تجليات معايير التقنين الفكري للسنن في البناء الاستراتيجي

يختلف البناء الاستراتيجي من استراتيجية إلى أخرى بحسب المعايير التي اعتمد عليها البناء، لذلك يقال بأن هناك بناءً جيداً وآخر سيئاً، ومثلما وُجدت هذه المعايير في البناء الوضعي للاستراتيجية فإن السنن التاريخية لا تجري إلا على وفق معايير أو شرائط أو ضوابط وبوجودها فقط يحدث جريان السنة التاريخية ويترتب عليها الأثر الفكري.

وتعتمد الاستراتيجيات الناجحة على معايير عند التدقيق بها نجدها متناغمة لمعايير جريان السنن الإلهية، ولا يعني هذا التطابق الكلي، بل التوافق النسبي الذي سبب النجاح، وبمعنى آخر توافرت شروط ومعايير النجاح كما تتوافر معايير وشرائط الجريان في السنن التاريخية كما أسلفنا أعلاه.

إن أبرز ما ذُكر من معايير في مواصفات الاستراتيجية الجيدة: الشمول، بحيث تتضمن جميع المواقف والاحتمالات المتوقعة، كذلك المرونة

والقابلية للتطوير، بحيث يمكن استخدامها من صف لآخر، فضلاً عن ارتباطها بالأهداف.[١]

لا ريب إن ما ذكر عن الشمول والاطراد في الموضوع السابق يؤكد التطابق في هذا المعيار الذي هو ميزة وخصيصة وفي الوقت نفسه معيار، وليس هذا فحسب، بل نجد إن المعيار الآخر المشار إليه والذي يتعلق بضرورة ارتباط المعايير بالهدف الأساس من الاستراتيجية هو هدف تنموي أكيداً، وهنا يتناغم المعيار الذي يمثل شرطاً لتحقيق الهدف المنشود في جريان السنن وهو الحصول على الرضا الإلهي وتتابع الخيرات كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[٢]. ويبدو واضحاً إن الله تعالى يبين آلية ومعيار وضابطة الوصول إلى الهدف، أو بمعنى آخر ضرورة النظر إلى الهدف في مراحل العمل كافة وبإستحضار ذلك الهدف تتحقق النتائج المتوخاة على اختلاف أشكالها، وهي في هذا المقام استحصاص الأرزاق والخيرات والمشروطة بمعيار الإيمان والتقوى.

لم يقتصر شرط ومعيار التقوى (الذي وظفناه سابقاً للاستدلال على الجريان) لتحقيق الأهداف التي يرمي إليها البناء الاستراتيجي على

---

(١) عمر نايف الأحمدي، مواصفات الاستراتيجية الجيدة في التدريس (Www.manhal.net).

(٢) الأعراف/ ٩٦.

استحصاص الخيرات بمفهومها العام فقط، بل إن جريان السنن يربط كل معيار بما يحققه من هدف خاص ومن ذلك مثلاً ما مر بخصوص التنفيس عن الضيق، إذ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1]. والمقصود مخرجاً من كل أمر ضاق على الناس[2]، ويرتبط بذلك تحقيق النتيجة الأخرى من التقوى وهي الرزق كما نصت الآية الكريمة.

وتارة تأخذ التقوى بوصفها معياراً منجىً لتحقيق الهدف المعنوي مثل تيسير الأمور وتسهيلها لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[3]، أي إن الله تعالى ييسر ويسهل أمر الإنسان المتقي في دنياه وآخرته.[4]

فضلاً عن تكفير السيئات وتعظيم الأجر التي أشرنا لها فيما مضى من صفحات لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾[5]، إذ درء السيئات بالتقوى للوصول إلى الهدف، وعظّم الله تعالى

---

(١) الطلاق/ ٢-٣.

(٢) الرازي، تفسير الرازي، ج ٣٠، ص ٣٤. وينظر: ابن عربي، تفسير ابن عربي، ج ٢، ص ٣٢٩ – ٣٣٠.

(٣) الطلاق/ ٤.

(٤) الرازي، تفسير الرازي، ج ٣٠، ص ٣٦؛ الواحدي، تفسير الواحدي، ج ٢، ص ١١٠٨.

(٥) الطلاق/ ٥.

له الأجر بفعل ذلك التغيير وذلك التقنين للعمل.[١] وغير ذلك من الأمثلة السالفة.

ويلاحظ إن هناك تناغماً واضحاً بين معايير جريان السنن والبناء الاستراتيجي في هذا المقام، ولا سيما ما يخص ضرورة النظر للهدف والحرص على معايير تحقيقه؛ فلا يمكن تصور استراتيجية ناضجة تضع أهدافاً بعيدة المدى دون أن تعمل على تحقيقها أو الوصول إليها بأمور تتناسب مع طبيعة المنظومة؛ فهي في السنن التاريخية تمثل التقوى، وفي البناء الاستراتيجي تمثل تطبيق الشرائط الخاصة بالمرونة والشمولية كما أسلفنا سابقاً.

وربما نجد إن بعض معايير الاستراتيجية الناضجة هي التي تعتمد على حصر فكرة الاستراتيجية بالمعنى بها نفسه سواء كان فرداً أو مؤسسة، بمعنى أن تكون الاستراتيجية المنهج الأساس[٢]، وهو الأمر ذاته الذي نجده في بعض معايير السنن التاريخية ومنها التي تعتمد بالدرجة الأساس على ذات الإنسان في التغيير، وهذا يعد معياراً رئيساً في تحقيق النتائج إذ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا

(١) ابن عربي، تفسير ابن عربي، ج ٢، ص ٣٢٩ – ٣٣٠.

(٢) هيئة المساحة الجيولوجية السعودية، معايير وضوابط الخطة الاستراتيجية (https://sgs.gov.sa).

بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2]. وخلاصة ذلك إن البناء الصحيح إنما ينبع من الوعي والتدبر والتفكر في الاستراتيجية والبناء بمختلف جوانبه سواء كان متعلقاً بأمور مادية أم معنوية، فالإنسان يمتلك مؤهلات هذا الوعي ومن ثم فهو قادر على إدراك الأمور وفعل ما عليه فعله للوصول إلى النتائج.

(١) الأنفال/ ٥٣.

(٢) الرعد/ ١١.

المبحث الرابع
آثار ومعطيات تجلي السنن في بناء الاستراتيجية

من الطبيعي أن تترك تجليات السنن التاريخية في البناء الاستراتيجي آثاراً فكرية متعددة يمكن صياغتها بالشكل الذي يوظفها بالجانب العلمي والعملي، وتكاد تنجلي الصورة في بيان تلك الآثار حينما نطبق التنوع بالسنن التاريخية المشار إليها سابقاً والآيات التي حددت آثارها على البناء كل منها على حدة وبما يبين إمكانية عدها منطلقاً فكرياً في التأسيس المستقبلي للتخطيط والتصميم الاستراتيجي.

ومن هذه السنن سنة الاستبدال التي ارتبط بها وبجريانها أثر مهم ومعطى حتمي وهو استبدال الظالمين وتولي المستضعفين الإيجابيين إذ قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.[1] والاستضعاف هنا بالإذلال والإهانة والاستعمال في الأعمال الطبيعية والاستخدام في تحصيل اللذات البهيمية والسبعية وذبح الأبناء واستحياء النساء وهو ما قام به فرعون مع بني إسرائيل، فنجاهم الله من العذاب، وجعلهم وراث الأرض وملوكها بإفناء فرعون وقومه.[2]

---

(١) القصص/ ٥.

(٢) ابن عربي، تفسير ابن عربي، ج ٢، ص ١٠٩. ينظر: الطبري، جامع البيان، ج ٢٠، ص ٣٥.

وقد أكد القرآن الكريم ذلك الأثر باستبدال الظالمين والمتخلفين بآيات أخرى ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[1] وكذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وقد عكس هذا الأثر صيغة سنة أخرى وهي سنة التمكين؛ فهي علاوة على كونها استبدالاً للظالم أو المتخلف، فهي من جانب آخر تمكين ونصر للمستضعفين ممن لم يجدوا ناصراً إلا الله تعالى فكانوا أهلاً للمقاومة والتصدي ومن ثم حصلوا على المكافأة.

وهذا يعني إن الارتباط بين السنتين يكون على شكل أثر، إذ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.[3] والتمكين في البلاد إعطاء المكنة.[4]

وربما لا نبتعد كثيراً حينما ندمج أثر سنة المداولة أو التداول والتي تعكس النتائج والمعطيات المستحصلة وهي نتائج حتمية مباشرة لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.[5]

---

(١) محمد/ ٣٨.

(٢) التوبة/ ٣٩.

(٣) الحج/ ٤١.

(٤) النسفي، تفسير النسفي، ج ١، ص ٣١٣.

(٥) آل عمران/ ١٤٠.

ومن الأنواع التي ذكرناها، ونقصد السنن ما ترك آثاراً مرحلية تمثلت بالرسائل الإلهية في كل مرحلة إلى أن جرت باكتمال الشرائط فتركت الأثر الأبرز، ومن هذه السنن سنة الإملآء أو الاستدراج والتي وردت بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.[1]

وهنا بيان لعاقبتهم وهي العذاب المهين، فالاستدراج سنة تتجدد كلما وُجد أمثال هؤلاء الذين طبع على قلوبهم، فيعتقدون إن الله يطيل في أعمارهم لمكانتهم ومقامهم، بينما هم يستدرجون في مسار الشر من تلقاء أنفسهم؛ لأن الله تعالى يتركهم وعملهم وهذا هو الإملاء، بينما يوفق الساعي في عمل الخير، وقد أكد القرآن الكريم هذه السنة بقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]. وحتماً فإن الاستدراج لا يعني الإيقاع الجبري، بل فتح المجال وترك الإنسان على حريته كما أسلفنا.

ومن السنن التي تترك آثاراً مباشرة على البناء المستقبلي سنة التدافع والتي ترتكز على تحقيق الأثر الآني والمستقبلي بدفع شيء بشيء، مثل دفع بعض الناس عن الآخرين الشر وإحقاق الحق إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا

(١) آل عمران/ ١٧٨.

(٢) القلم/ ٤٤ (أو الأعراف/ ١٨٢ حسب سياق الاستدراج.(

اسْمُ اللَّهِ كَثِيراًۗوَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۗإِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]. والصوامع هي صوامع الرهبان، وأما البيع فكنائس النصارى، وأما الصلوات فكنائس اليهود، وأما المساجد فمساجد المسلمين، والمعنى على هذا: لولا أن الله جل وعز يدفع بعض الناس ببعض، لهُدّم في وقت كل نبي، المصليات التي يُصلى فيها.[2]

ويمكن أن يُعمم الأثر الناتج ليكون عن المنظومة بكاملها سواء أكانت العقدية منها أم الاجتماعية أم السياسية أو الوطنية فيكون جريان هذه السنة هو الترياق والعلاج الناجع، ومن هنا ورد في ذلك قول الباري عز وجل: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾.[3]

ويرى الدكتور مجدي قرقر إن التدافع يحتمل عدة معانٍ وهو وسيلة للحيوية والحركة والنمو وانطلاق الطاقات وله صوره ودرجاته المتعددة بداية من الحوار ومروراً بالجدل والمناظرة والمنافسة والسباق والمواجهة والمغالبة وانتهاءً بالصراع أو القتال.. وكما نرى فإن صور التدافع مشروعة كما أنها في نفس الوقت محكومة بضوابط من شرع الله.. وحتى الصراع أو القتال فقد كُتب على المسلم وهو كره له ولكنه محكوم أيضاً بضوابط.[4]

---

(١) الحج/ ٤٠.

(٢) النحاس، معاني القرآن، ج ٤، ص ٤١٧ – ٤١٨.

(٣) البقرة/ ٢٥١.

(٤) مجدي قرقر، التدافع الحضاري بديلاً عن الصراع، ص ٣.

الفصل الثالث
بناء السنن التاريخية لاستراتيجيات المواجهة

إن مخالفة السنن التاريخية -كما هو الحال في موضوع التحديات التي تحتاج إلى مواجهة- يشير إلى نتيجة حتمية هي السقوط؛ إذ إن توظيفها هو الكفيل بقراءة السبب والمسبب، ومن ثم الكيفية في تشخيص الأخطار ووضع العلاجات المناسبة لدرئها.

ولا يعني هذا المنطق اختزال كل السنن الأخرى بالسنن التاريخية، بل إن لكل منها مجراها ومقامها؛ فمن الأحداث ما يحكمها سنن فيزياوية ومنها فسلجية وهكذا، أما مسار الأحداث الذي يختص بالإنسان ودوره فتحكمه السنن التاريخية؛ فالظالم مثلاً تحكمه سنة الاستبدال القرآنية، وتوظيف القرآن الكريم لسنة الاستبدال هنا هو أمل وحافز ودافع وتعبئة للجماهير في التصدي للانحراف وتداعياته، وهو كتلة من التوجيه المعنوي للمواجهة بأشكالها كافة، كما أنها مقدمة لإصلاح النفس والتوحد في مواجهة الخطر المشترك؛ فذلك التوظيف هو الذي يمثل فلسفة السنن التاريخية أو يمثل هدف القرآن من طرحها بهذا الشكل.

وينبغي أن نعرف أن السنن التاريخية التي وردت في القرآن الكريم لم تتحدد باتجاه واحد، بل تنوعت، مما يعني تنوع توظيفها الفكري في التصدي والمواجهة؛ فمنها السنن المقيدة بمحددات والتي لا تتحقق إلا بضابطة؛ فالسعي للإصلاح من الذات وما يتعلق بها هو شرط تغيير المحيط، ومن هنا فالانحراف وتداعياته إنما بني على جملة من نقاط

الضعف أبرزها ذلك التقصير والنكوص عند الإنسان والذي يحتاج إلى عمل لتغييره ومن ثم تغيير الواقع.

ومن السنن ما مثّل اتجاهاً علمياً حتمياً يرتكز في حكمه على مسارات علمية لا يمكن الخروج عنها وهي متحققة كقوانين الجاذبية وغيرها، وهنا تدخل السنن الموضوعية العامة التي تسمى الاتجاه الطبيعي التكويني والذي لا يمكن مخالفته وتحديه، ومستقبل هذا التحدي هو السقوط، وهو ما ينطبق على الإرهاب وتداعياته؛ فهو نسخة من ذلك التحدي والخروج على السنن ومن ثم فهو بداية لسقوط يستدعي أن تكون مقدماته صحيحة لأنها موجهة من المجتمع، فكلما كان السعي جماعياً تحققت السنن.

وربما نجد أن أكثر السنن الموجهة في موضوعنا هذا هي سنة التدافع، والتي يقصد بها دفع الكفر بالإيمان، والشر بالخير، والفساد بالصلاح، والباطل بالحق، والمنكر بالمعروف؛ فهذه السنة تتعلق بوجود أناس في كل زمان يأخذون على عاتقهم مواجهة الأفكار الظلامية لكي يعلو صوت الحق، وهم الذين يتصدون للإرهاب وتداعياته في عصرنا وينوبون عن الآخرين في حماية الدين والمبادئ الإنسانية عموماً.

وعلى العموم، فإن التوظيف القرآني لهذه السنن ينبع من مبدأ الإصلاح والبناء في مقابل الهدم والتخريب الذي مثّل الانحراف أحد مصاديقه،

وهو الأمر الذي سنحاول دراسته في هذا الفصل بالاعتماد على القواعد التي تمت الإشارة إليها في الفصول السابقة.

يتناول البحث مشكلة مهمة تتعلق بكيفية المواجهة وإعداد استراتيجية مباشرة لذلك تقوم على أساس السنن التاريخية، وعلى وفق المنطق القرآني الذي يتعامل مع جذور المشكلات وآثارها وتداعياتها عموماً، وهو الأمر الذي يجبرنا على إيجاد الحلول له بالقراءة المتعمقة في الأطر التاريخية القرآنية لأنها أساس حل هذه المشكلات، وقد اتخذت من السنن التاريخية في القرآن الكريم المحور الأساس في حل المشكلات، بل ومواجهتها.

ولعل أبرز الأهداف المتوخاة من الدراسة:

١- تفعيل دور القرآن الكريم في تشخيص ومعالجة الفتن والآفات التي تصيب جسد الأمة في مراحل الحياة كلها.
٢- تحقيق التجربة والخبرة في التصدي للمواقف المستجدة بالاعتماد على سنن عملية تجمع بين الجانب النظري والعملي في الماضي والمستقبل.
٣- التعبئة الجماهيرية والدافعية الجهادية للناس كنتيجة إعدادية من فهم المنطق القرآني ومقاصده.
٤- ربط التاريخ بالواقع ودراسة الحوادث التاريخية وفق القاعدة والسنة القرآنية؛ لأن هذه الدراسة مقدمة لبناء الحاضر والمستقبل.

المبحث الأول
ارتكاز استراتيجية المواجهة على القواعد السننية

لكي تتوضح الصورة، ينبغي أن نفهم أن علم التاريخ يخرج عن حدود النقل والرواية ليرتبط بالمفهوم العلمي الذي يستند إلى القوانين الثابتة المطردة، الهادفة إلى بناء الإنسان وفق التجارب الماضية؛ فالتاريخ يسير بنسق علمي يعتمد على القوانين أو السنن التاريخية التي ذكرها القرآن الكريم لتكون المنهج والطريق الذي يسلكه المتعقلون.

إن معرفة التاريخ تعني -فيما تعني- معرفة قوانين الحركة وتكوين المجتمع والحضارة ونوع الإنسان، ومعرفة علل وماهية تلك القوانين؛ فالتاريخ يتقدم نحو هدف مقصود ومعين ومسلم به، وإن مجيء هذه القوى أو تلك لم يكن تصادفياً، وإنما هو نتيجة سنن تتحكم بمفاصل كل تلك العمليات التاريخية؛ لذا نجد أن القرآن الكريم قد قاوم النظرة العفوية أو النظرة الغيبية المجردة لتفسير الأحداث، حيث قاوم تفسير الإنسان للأحداث على أساس الصدفة والاستسلام خارج دائرة الأسباب والمسببات، ولذلك نبه العقل البشري إلى أن هذه الساحة لها سنن وقوانين.[1]

(١) حسن سليمان قيلي، السنن التاريخية في القرآن الكريم، ص ١٨.

وبلا ريب، فإن الآيات السالفة تشير إلى عدم إمكان التغيير في تلك القوانين، وعدم عدها أحكاماً عادية أو منسوخة.[١] وإن المفهوم العام لحتمية السنّة وتطبيقاتها وعدم تبديلها في هذه الآيات يفضي إلى القول بأنه يعني: ولن تجد لسنة الله التي سنها في خلقه تغييراً،[٢] وأن أحداً لا يقدر على تغيير سنة الله وإبطالها.[٣]

ومن الآيات الأخرى الدالة على عدم التبديل قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[٦]، وكذلك قوله جل وعلا: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.[٧]

---

(١) الرازي، تفسير الرازي، ج ٢٥، ص ٢٣١. وينظر: الطبري، جامع البيان، ج ٢٦، ص ١٢٠.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٢٢، ص ٦٠.

(٣) الجصاص، أحكام القرآن، ج ٣، ص ٤٨٧. وينظر: السمرقندي، تفسير السمرقندي، ج ٣، ص ٧٠.

(٤) الأنعام/ ١١٥.

(٥) الكهف/ ٢٧.

(٦) الأنعام/ ٣٤.

(٧) يونس/ ٦٤.

وبالمحصلة النهائية، فإن السنن هي أقدار الله وعهوده الثابتة الحقة وكلماته التامات التي لا تبديل لها ولا تحويل، ولا يعتريها تغيير ولا تحابي مؤمناً أو كافراً[١]، كما أنها القانون الضابط المهيمن، والفعل النافذ الحاكم الذي يجري باطراد وثبات وعموم وشمول، مرتباً على سلوك البشر.[٢] ولكي يكون الإنسان فاعلاً ومؤثراً في مجرى التاريخ، لا بد له أن يكتشف هذه السنن والقوانين التي تسير عليها أحداث ومجريات التاريخ، وأن يتعامل وفق المعرفة بهذه السنن، وإلا صارت حياتنا ضرباً من العبث وسيرنا خبط عشواء.[٣]

أي إن فلسفة وهدف هذا الثبات هو تقويم المعوج من العمل، وفتح الطريق أمام الإنسان ليعيد حساباته ويرسم مساره باتجاه القوانين التاريخية التي تعيد نفسها بما ينسجم والتدخل البشري الذي يشترط فيه التفكر والتعقل، ومن ثم الوصول إلى الرعاية الإلهية التي لا تبدل سنتها وقوانينها.

(١) رشيد كهوس، السنن الإلهية وخصائصها، ص ٤.

(٢) رمضان خميس زكي، مفهوم السنن الربانية دراسة في ضوء القرآن الكريم، ص ١٠.

(٣) حسن سليمان قيلي، السنن التاريخية في القرآن الكريم، ص ٢٣٠.

المبحث الثاني
المحددات والمحفزات القرآنية لجريان السنن وتوظيفها في المواجهة الفكرية

إن مواجهة الانحرافات الفكرية وتداعياتها تستدعي جريان السنن التاريخية وتوظيفها في هذا الإطار، غير أن ذلك الجريان والتوظيف يتطلب توافر وتحقق محددات وضوابط عدة، ترتكز بالأساس على إرادة الإنسان ومدى تعقله وتفكره؛ وهذه المحددات والشروط تمثل المقدمة الفعلية لنفاذ السنة التاريخية ومن ثم التصدي للانحراف. ومن هنا حدد القرآن الكريم هذه الضوابط وبين آثارها، كدعوة تثقيفية للتعبئة في المواجهة، وهي بمثابة البيئة التي تحقق قيام السنّة وظهور المستوى التطبيقي فيها، وباستقراء بسيط يمكن أن نبين أهم تلك الضوابط والاعتبارات لتوضيح الصورة:

الضابطة الأولى: الإصلاح الذاتي وهي شرط أساس في حصول الحركية والتطبيق العملي للقواعد والنواميس الإلهية التي تأخذ الطابع التاريخي، وتوظيفها في تشخيص ومعالجة التداعيات لمجمل الانحرافات الفكرية؛ إذ إن توافر مثل هذه الضابطة يفعّل سنة التمكين والاستخلاف وما شابه، وهذه الضابطة كفيلة برفع الظلم عن المتعقلين المتفكرين، وهو ما قصده قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا

بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، وهي قاعدة وضابطة أساسية ومحورية ومقدمة أصيلة في المواجهة.

وإذا ما ربطنا دور الإنسان في قيام السنّة -ونقصد تفكره وتعقله فيها- أمكننا فهم الأمور بشكلها الواقعي، لا أن تدخل السلوكيات والمزاج كشرط في السنن، وهذا ما مرّ من أنه يمثل التحدي الملموس للسنّة. ومن هنا فمعنى الآيات الكريمة أن الله تعالى أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل، والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ويعدلوا عن الكفر؛ فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر، فقد غيروا نعمة الله تعالى على أنفسهم، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم والمنح بالمحن، وهذا من أوكد ما يدل على أنه تعالى لا يبتدئ أحداً بالعذاب والمضرة، والذي يفعله لا يكون إلا جزاء على معاصٍ سلفت.[2] وإن سائر الآيات دلت على أنه تعالى لا يبتدئ بالتعذيب والإهلاك لأن الفيض الإلهي عام متصل كالماء الجاري[3]، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن هذا التغيير مرتبط بالإصرار على الكفر أو الظلم أو الذنوب عموماً؛ فإن أصروا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النقمة، وتزول عنهم الحفظة المعقبات.[4]

---

(١) الأنفال/ ٥٣.

(٢) الرازي، تفسير الرازي، ج ١٥، ص ١٨١.

(٣) ابن عربي، تفسير ابن عربي، ج ١، ص ٣٦٢.

(٤) القرطبي، تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٢٩٢.

وإزالة الموانع المشار إليها في هذا المقام إنما تقوم على اتخاذ السلوكيات المناسبة للتصدي، على أن هذا السلوك -الذي يسمى بالعبادي- لا يعني بأي حال من الأحوال العبادة المادية، بل مواجهة الانحرافات والمساهمة الفعالة في التصدي لها؛ لذا فتغيير ما بالنفس لا يخص الشخص نفسه، بل كل البيئة المحيطة به بما فيها البيئة المنحرفة. والذي يُلاحظ في هذا المقام أننا يمكن أن نفهم هذه الآيات بشكل معاكس أيضاً، وهو أنه يمكن للإنسان أن يعكف على إزالة النقم والعذاب عن نفسه، والناجم أساساً من أعماله السيئة، وذلك بتغيير هذه النفس الأمارة ليستحق رفع العقوبة للإمداد بنعم الله سبحانه وتعالى.

ويمكن إجمال الأفكار الهادفة إلى توظيف هذه الضابطة في مواجهة الانحراف فيما يأتي:

- **أولاً** :اشتراط المصداقية والفاعلية في المواجهة، ونقصد وجود الاتجاه المعاكس في النفس الإنسانية وهو الوجود الفاعل وليس المجرد.
- **ثانياً** :التثقيف بأن ظهور الانحراف هو استحقاق لاتجاه الناس السلبي وليس أمراً طارئاً يأخذ طابع المفاجأة.
- **ثالثاً** :إن هذا التوظيف أوجد الحل بتعبئة الناس للعمل للتصدي ابتداءً من المحور الأول وهو محور ذات المتصدي.

- **رابعاً**:إن هذا النوع من الشروط يمثل الفكرة الأساس في عزل الانحراف ومواجهته على المستوى المادي والمعنوي.

الضابطة الثانية: التقوى والاستقامة وهي ضابطة مرت تفاصيلها ويمكن الإشارة إليها على سبيل العموم، وهي تتعلق بالمتقين وعمق هذه التقوى فيهم؛ إذ تترتب عليها الكثير من الأمور والآثار التطبيقية في سنن التاريخ، وهي آثار تمثل ترجمة للمواجهة ومنها -كما مرّ- الخروج من المشكلات ومن الشدة إلى الرخاء.[1] ونجد هنا لغة التعميم على كل أمر وضيق يصيب الإنسان لأن التقوى هي الميزان الذي يفاضل بين الناس؛ فالمنهج المنحرف إنما يعتمد في دعوته على ادعاء التقوى، والله تعالى يهيئ الأسباب للقضاء على الظلم ومريديه بتفعيل السنّة التاريخية التي تقتضي اعتماد الأحكام الإلهية في المواجهة وهو ما يمثل التقوى فعلاً.

وهذا اليقين هو منبع ومصدر للتضحية والتصدي والإيثار ومواجهة الأفكار الضالة المضلة، فما يتحقق من التقوى ليس مالاً أو مواد عينية، وإنما هو استحقاق وتفعيل لنعم الله تعالى؛ أي إنه ترك الخنوع والخضوع والركون فاستحق أن يرزق بالرزق الاعتباري من الوجاهة والقيادة والمسؤولية بجده واجتهاده في إثبات نفسه بالأدوات المشروعة أمام المنحرفين. فضلاً عن الرزق المادي الذي يمثل تحدياً رئيساً كأثر من آثار

(١) الواحدي، تفسير الواحدي، ج ٢، ص ١١٠٧.

الانحراف، والأمر ينطبق على تيسير الأمور ومواجهة عسرها الذي يتنوع في أشكاله، وأشده على الناس هو ما يمثل الانحراف اليوم الذي شملت تداعياته النواحي المختلفة، فكانت آثار هذه السنّة صريحة في علاج التداعيات المفروضة وهو اليسر المقصود.

وأيضاً لا ننس الاستقامة كضابطة، فهي نقيض الانحراف ومقدمة المواجهة وشرط جريان السنة، ولعل من أولوياتها التصدي للتداعيات الفكرية والسياسية والاقتصادية، لكونها ترتكز على مرتكزات عدة أهمها: التشخيص المتعقل للأمور، والاتجاه الفكري البناء، بل وتشخيص الانحراف الحقيقي وفرزه عن الدين الذي طالما تشدق به أتباعه، ومن ثم فإن الخير الكثير الذي هو بمثابة المكافأة للاستقامة يعكس معالجة تلك التداعيات الرهيبة على مختلف الأصعدة.

المبحث الثالث
التوظيف التعبوي للسنن في مواجهة الإرهاب

يمثل الثبات والحيوية والحركية في السنن التاريخية الأساس الذي قام عليه التنوع في السنن، والذي من طبيعته التجدد الزمني بفعل توافر الظروف المهيئة والمحركة، والتي تستند بالأساس إلى الطبيعة البشرية؛ مما خلق الأجواء والعوامل المساعدة على ذلك التجدد في جريان السنن، ومن هنا برز هذا التنوع فيها، والذي يمكن فهمه من خلال الخوض في تلك الأنواع الممثلة لواقع التصدي والمواجهة للانحراف، ومن ثم إعطاء دفعة من الأمل لكل المتضررين من تداعيات الانحرافات على المستويات كافة.

ومن هذه السنن **سنّة الاستبدال** التي تعكس الحيوية والحركية؛ إذ إن هذه السنة تُبنى في حركتها وتطبيقها على فكرة تعويض المستضعفين ووراثتهم الأرض، وقد جسد القرآن الكريم هذه السنة وحيويتها واطرادها في كل زمان بآياته الكريمة التي ذكرناها سابقاً. والجدير بالذكر أن قاعدة الاستبدال متجددة في كل زمان، فالظلم واحد والتصدي بحسب مقام المتصدي، فتكون الوراثة والاستبدال هي الصورة العاكسة لطبيعة الأقوام في كل زمان ومكان؛ فما يطرحه القرآن لا يتعلق بأسباب النزول بقدر تعلقه بالتثقيف العام وهو تثقيف تعبوي، ولا أدلّ من التصدي للانحراف

في هذا المقام. فطبيعة التوظيف لهذه السنة في القرآن بنيت على أساس تعبئة الجماهير وفق ما يأتي:

- **أولاً** :الوعد الإلهي بالنصر عند مواجهة هذا التحدي، ومنه تحدي الانحراف وتداعياته المختلفة.
- **ثانياً** :التثقيف بتشخيص ظلم المنحرفين، والتأكيد على عناصر القوة في الفرد المؤمن الذي يستنهضه الدين.
- **ثالثاً** :التعبئة بتكريم المتصدين للانحراف بجعلهم أئمة وقادة نتيجة لجدهم واجتهادهم وردهم الظلم وتداعياته.
- **رابعاً** :العمومية والشمول في جريان هذه السنّة على الأرض دون أن تتحدد في فئة أو مكان وبغض النظر عن الزمان.

ومن الآيات الأخرى التي أشارت إلى نفس إطار هذه السنّة قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1]. وهي تقوم على نفس الفكرة والاتجاه الشمولي الحيوي المتحرك، مع الإشارة الصريحة إلى تدمير الانحراف على أثر تفعيل هذه السنّة؛ إذ إن الآية الكريمة توحي بانهيار كل التداعيات التي يخلفها الانحراف وذلك بتساقط عروش المنحرفين التي

(١) الأعراف/ ١٣٧.

بنيت على حساب المستضعفين، كما أن الشمول والعمومية في هذه السنة ظهر بشكل واضح في ذكر "المشارق والمغارب"، هذا إلى جانب وضوح الثبات والاطراد في السنن وحتميتها التي دلت عليها الآية الكريمة، وبالخصوص ما يتعلق بنفاذ كلمة الله الحسنى وهي سنته.

ونجد في محور آخر بياناً للاتجاه العكسي من هذه السنّة؛ إذ إن إيحاءاته موجهة إلى الظلمة بأصنافهم كافة، ولعل أبرز مصداق في هذا الاتجاه هو الانحراف، فضلاً عن السلاطين والحكومات الظالمة، وإلقاء الحجة عليهم قبل استبدالهم، ومن ثم جريان سنّة الاستبدال؛ ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[1]، مما يشير إلى عاقبة ترك الدين والابتعاد عن مبادئه بل والارتداد عنه، وكذلك قوله تبارك اسمه: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]. وهنا كانت السنّة فعالة في استبدال من يدعي الدين ولا يؤدي ما عليه ولا ينهض للنصرة لعدم إيمانه الحقيقي بقدر استخدامه للدين في تحقيق مصالح ذاتية، وهذا الاستبدال هو جريان للسنّة على يد المتصدين الحقيقيين، مع العلم أن أغلب المنحرفين هم من الصنف المدعي للدين كذباً وزوراً.

---

(١) محمد/ ٣٨.

(٢) التوبة/ ٣٩.

وتتبلور هذه السنة جليةً في سقوط الحكومات والقيادات وقيام الأخرى مقامها، وانحطاط الأمم والجماعات وحلول أخواتها محلها؛ فإذا عهد الله إلى أمة أو جماعة برسالة، أو إلى حكومة أو قيادة بمسؤولية، فإن كانت تؤدي رسالتها وتقوم بمسؤوليتها أبقاها على منصبها، وأدام لها نعمتها التي خوَّلها، ووفَّر لها أسباب البقاء وأفسح لها مجال العمل، وإن تهاونت في الاضطلاع بها، أو قصَّرت في أدائها، أو أعرضت عنها وتولّت، أو ظلمت وطغت، استبدل بها أخرى صالحة للقيام بالمسؤولية، نشيطة في أدائها، تختلف كلَّ الاختلاف عن سابقتها.[1] وهو الأمر الذي يقوم على وراثة المستحقين العاملين من أصحاب المواجهة لكل هذه الأصناف من الانحراف.

وترتبط **سنّة الاستخلاف والتمكين** بنفس المسار مع سنّة الاستبدال السابقة، ولا سيما بالجزء الخاص بالتجدد والحركية وبالأثر المتعلق بالتمكين، والذي هو إعطاء ما يصح به الفعل مع رفع المنع؛ لأن الفعل كما يحتاج إلى القدرة، فقد يحتاج إلى آلة، وإلى دلالة، وإلى سبب، ويحتاج إلى ارتفاع المنع، فالتمكين عبارة عن جميع ذلك[2]، مما يفسر قول الباري عز وجل في هذا الإطار: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا

(١) محمد ساجد القاسمي، استبدال الأمم والحكومات من السنن الإلهية، ص ٢.

(٢) الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٢٢.

الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1]. وهو إخبار من الله عما ستكون عليه سيرة المؤمنين إن مكنهم في الأرض وبسط لهم في الدنيا[2]، والتمكين في البلاد إعطاء المكنة[3] وفق ما يترتب من أعمال العباد واستحقاقاتهم التي تتطلب التضحيات تلو التضحيات؛ فالتمكين لا يأتي دون عناء واجتهاد، وإنما هو نتيجة عمل وجهاد خالص سمته الرئيسة هي النية الصادقة في التصدي للانحراف وإحقاق الحق.

وقد بني هذا التمكين على الاستخلاف المسبق المُعد من الله للإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4]. أي إن هناك علاقة مباشرة بين الاستخلاف والتمكين تقوم على ما يأتي:

- **أولاً :**إن الإنسان مستخلف في الأرض أصلاً، وما يأتي بعد ذلك هو سلوك متفاوت بين البشر بشكل يوظف سنّة التمكين لتتناغم مع مقام المستخلف من الله تعالى.

---

(١) الحج/ ٤١.

(٢) النسفي، تفسير النسفي، ج ٣، ص ١٠٦.

(٣) النسفي، تفسير النسفي، ج ١، ص ٣١٣.

(٤) البقرة/ ٣٠.

- **ثانياً**:إن الاستخلاف والتمكين يقومان بالأساس على شروط واحدة تقتضي الرعاية الإلهية إذا سارت بالمسار الإيجابي، بينما تُقيد وتُحدد إذا سلكت طريقاً آخر مجانباً.
- **ثالثاً**:عدُّ التجربة المنطلق الابتدائي في حركية السنّة التاريخية والبناء عليها، وهو الأمر الذي يفسر لنا ربطها بالعمل الصالح وفعل الخيرات بما فيها التصدي للانحراف وقطف ثمار ذلك.

ويمثل **التدافع** -الذي فسرنا معناه فيما مضى- وسيلة للحيوية والحركة والنمو وانطلاق الطاقات، وله صوره ودرجاته المتعددة بداية من الحوار ومروراً بالجدل والمناظرة والمنافسة والسباق والمواجهة والمغالبة، وانتهاء بالصراع أو القتال. وكما نرى فإن صور التدافع مشروعة، كما أنها في نفس الوقت محكومة بضوابط من شرع الله؛ وحتى الصراع أو القتال فقد كُتب على المسلم وهو كره له ولكنه محكوم أيضاً بضوابط.[1] ويمكن أن يُترجم هذا الضرر الذي يصيب الأرض في حال عدم جريان سنّة التدافع بالآية القرآنية المباشرة السالفة لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾[2]. ولعل هذه السنّة أكثر المصاديق تطبيقاً في عصرنا الحاضر؛ فتارة يكون التدافع بفرد عن فرد، وتارة بمؤسسة عن أخرى، وتارة ثالثة بدولة عن دولة، وهكذا.

---

(١) د. مجدي قرقر، التدافع الحضاري بديلاً عن الصراع، ص ٣.

(٢) البقرة/ ٢٥١.

المهم في الأمر أن هذه السنّة أخذت مجالها الحيوي الحركي بفعل توافر البيئة التي لا يكاد يخلو منها زمان ومكان، مع التأكيد على تنوع المواجهة والتصدي للإرهاب؛ فقد يكون فكرياً، وقد يكون سياسياً، وربما عسكرياً بحسب مقتضيات المرحلة.

ومثلت **سنة الاستدراج** محوراً آخر من المحاور الحيوية الحركية التطبيقية؛ إذ لا ننسى أنها مرتبطة أيضاً بغيرها من السنن، ويقصد بها استدراج المنحرفين بفتح الباب أمامهم لأن الإنسان غير مجبر، وإنما هو من يسلك الطريق الذي يراه متناسباً مع هواه أو مع عقله، وهو الأمر الذي أشارت له الآيات السالفة؛ فالاستدراج سنّة تتجدد، وفي هذه السنّة تعبئة ووعد للناس في مقاومة أفكار هؤلاء وعدم الركون لهم لكون أمرهم إلى الزوال.

إن نظرة سريعة وعميقة لتلك الحيوية في السنن التاريخية تضعنا أمام صور عدة تشير إلى ذلك الارتباط والتناغم بينها بشكل يؤطر تطبيقها بإطار الرعاية الإلهية، ومن هذه الصور:

- **الصورة الأولى**:ارتباط جميع السنن المذكورة بالعمل الصالح والتقوى، وتطبيق شرع الله في أرضه.
- **الصورة الثانية**:وجود التكاملية بينها بشكل يضمن وجودها جميعاً وتحققها بتحقق إحداها.

- **الصورة الثالثة** :اتضاح الفلسفة والغاية منها بشكل جلِي، ونقصد الفلسفة التعبوية التثقيفية، التي تضمن البناء التربوي وتحقق التجربة ومن ثم مواجهة الانحراف.
- **الصورة الرابعة** :تطبيقها النخبوي في صورتها العامة، أي اعتماد تطبيقها على نخبة تظهر في كل زمان وتأخذ على عاتقها الجانب الحركي.

وعلى وفق هذه الحيثيات السالفة، فمن الواجب اتخاذ جملة إجراءات: ١- توجيه الدراسات الاستراتيجية وفق فكر يعتمد على المنطق الإصلاحي الإعدادي الذي جاء به القرآن؛ فهو تبيان لكل شيء، أي إن فيه قواعد كل الأصول، ومن هذه القواعد السنن التاريخية الحتمية. ٢- توطيد العلاقة بين الدراسات التاريخية من جهة، والدينية والعقائدية من جهة أخرى، ومحاولة التأكيد العملي على نقاط الاشتراك وأثرها في معالجة المشكلات. ٣- الدعوة لعقد مؤتمر دولي يتبنى دراسة السنن التاريخية في القرآن، واعتماد الدستور الإسلامي كأساس في معالجة الأزمات عالمياً. ٤- التعامل مع الانحراف والإرهاب على أسس جذرية وليس على أساس التداعيات؛ لأن معالجة الآثار لا تحل المشكلة كما هو الحال في معالجة الأسباب. ٥- اعتماد الطرح القرآني للتاريخ كطرح موحد في التصدي للانحرافات، وعدم اعتماد الاجتهادات الموجهة أيديولوجياً.

الفصل الرابع
تنمية السنن التاريخية لاستراتيجيات التكامل في إدارة الأزمات

من المعلوم أن العطاء الفكري بمستوياته كافة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بدرجة الواقعية والمصداقية في النموذج المدروس، وكلما كان هذا النموذج يمتاز بالثبات كان تأثير ذلك العطاء أكبر وأهم، ومن هنا فإن توظيف السنن التاريخية في مواجهة الأزمات يفضي إلى هذا الثبات وتلك المصداقية بفعل ثبات القرآن نفسه ومصداقية وضرورة ما يطرحه من فكر وهو مصدر السنن. توجد مرحلية وترابط وتكامل بين السنن التاريخية والتي هي القوانين والنواميس والقواعد التي تخص الإنسان وحركته عبر الزمن، والمعروفة بحيويتها واطرادها وثباتها[١] وهذا التكامل له مدخلية في جريانها وتحقيق فلسفتها وغاياتها الإصلاحية، إذ إننا نلمس ذلك الإدراك المهم لثقافة تلك المرحلية التي تقود للتكامل ومن ثم بات من الضروري تفعيل وترسيخ هذه الثقافة بالشكل الذي يضفي الإطار العلمي على الأحداث التاريخية والقصص القرآني وبما يحقق الآفاق المستقبلية البناءة. ومن هنا كان من الواجب استخدام هذه المنهجية البنائية لمعالجة المشكلات والأزمات المتنوعة والتصدي لها على وفق الإطار التكاملي للسنن التاريخية

(١) توفيق بن أحمد الغلبزوري، السنن الكونية والاجتماعية في القرآن، ص ٧.

وبالاعتماد على التشخيص القرآني لمراحل ذلك التكامل وفلسفته وموازنته لعناصر وحدود السنن في التصدي للأزمة ووضع العلاجات الكفيلة بحلها سواء أخذت تلك الأزمات الطابع الاجتماعي أم الاقتصادي أم الصحي أم غير ذلك.

إن السنن الإلهية فيما يتعلق بالشأن الإنساني لا تعمل فرادى بل تعمل مجتمعة وبصورة متشابكة، وهي وإن بدت سنناً مختلفة في ظاهرها، إلّا إن بينها تكاملاً وتبادلاً في التأثر والتأثير، بحيث لا تحسم نتيجة سنة منها دون مراعاة أثر السنن الأخرى، وتكون النتيجة هي حصيلة السنن العاملة كلها في آن واحد، أو لنقل حصيلة تعامل الإنسان مع مجموعة السنن التي تعرض له في أثناء حركته في الأرض.[1]

(١) فؤاد العمري، السنن الإلهية خريطة المستقبل.

المبحث الأول
الموازنة بين قوانين المواجهة واستحقاق التكامل

يقتضي جريان السنة وتفعيلها التكامل مع سنة أخرى بما يحقق الهدف والغاية، ومؤكد إن هذا الهدف هو بنائي يقوم على العلاج ومواجهة الأزمات سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو عسكرية وهكذا، وربما نجد إن أي جانب من هذه الجوانب يعكس الفكرة المرادة التي تمثلها السنن التاريخية. لقد جمع القرآن الكريم المراحل التي تتم بها المعالجات على وفق القواعد والسنن، وهذه المراحل مثلت ضروريات التكامل بين سنة وأخرى وآثار ذلك التكامل، ولعل مصداق هذا الطرح القرآني هو تلك العلاقة التكاملية بين سنة الابتلاء وسنة التمكين إذ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1] وأبرز صور هذا التكامل هي:

الصورة الأولى: إن التمكين والنصر هو غاية يحققها جريان السنن إلاّ أن هذه الغاية مشروطة بحصول الابتلاء.

---

(١) البقرة/ ٢١٤.

الصورة الثانية :يعتمد التمكين والنجاح في مواجهة الأزمة على مدى ومقدار وجدية التفاعل مع الابتلاء بشكل إيجابي.

ثالثاً: إن مقدار النجاح يرتكز على التجربة وأسلوب التعاطي معها فكلما كانت درجات الوعي كبيرة في هذه التجربة كانت الاستفادة منها أكبر.

الصورة الرابعة: إن الأثر الناتج من تفعيل السنن لمعالجة المشكلات هو استحقاق وليس نتيجة فقط إذ إنه بني على تضحيات في مواجهة الأزمة.

وقد أكد ذلك من فسر هذه الآية حينما أشار إلى الحتمية في حصول ذلك الأثر وهو تفعيل سنة التمكين والنصر وذلك بسبب وجود سنة الابتلاء والتفاعل معها بالعزيمة والصبر، وقال بأنها دالة على إن إتيان ذلك النصر متوقع ومنتظر[١]، بناءً على عناصر التكامل بين السنتين وحتمية الآثار المترتبة على هذا التكامل لكون التعامل في الأساس متعلق بقواعد وقوانين ثابتة ليس فيها تبديل أو تحويل كما أسلفنا. ولا يمكن أن ننسى إن المحور الذي دارت عليه هذه السنن هو الأمم القديمة ومستوى تعاطيهم مع هذه المواقف وبالتحديد المؤمنين منهم وكيف أصبحوا مثالاً يحتذى به ويتدرب عليه فيما بعد[٢]. أي إنهم مارسوا نفس الفعل حتى يحصلوا على النتائج نفسها التي حصل عليها سابقوهم وقد مرّ هذا الفعل بسنتي الابتلاء والتمكين. وهو بصورة أخرى يمثل منهجية في الحفاظ على المبدأ وعدم

---

(١) تفسير الرازي، ج ٦، ص ٢٠.

(٢) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل، ج ١، ص ١١٢.

الاستسلام إذ إن هذه المنهجية قامت على المواجهة للبلاء بالصبر والثبات كمقدمة حتمية لتحقيق الغاية بتركيز المبدأ وترسيخه والحفاظ عليه بهذه التضحيات فكان استغلال الترابط بين هاتين السنتين الأساس في التصدي للأزمة وتحقيق النصر فيها. لقد مثل هذا التكامل قاعدة علمية تخضع للسبب والنتيجة، فبمقدار الابتلاء أو الأزمة يكون العطاء، لذلك نقل بعضهم قولاً للشافعي يؤكد هذه الفكرة التكاملية وآثارها إذ سأله رجل فقال: "يا أبا عبد الله، أيما أفضل للرجل أن يُمكّن أو يُبتلى؟" فقال الشافعي: "لا يُمكّن حتى يُبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة.[1]"وقد يُفهم بأن الغاية من الابتلاء هي الابتلاء نفسه وهو أمر ربما يجانب الواقع لاسيما مع عدالة الباري سبحانه وتعالى، إذ إن الاختبار يترتب عليه حقوق، فاستحضار المبتلى للمبدئية في مواجهة الأزمة هو ارتقاء نحو الكمالات وهذا الارتقاء يختلف باختلاف درجة التصدي، كما إن هذا الكمال قد يكون تمكيناً معنوياً وقد

(١) نقل المتقي الهندي إن الرسول ﷺ قال: (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة). كنز العمال، ج ٣، ص ٣٢٦.

يكون نصراً مادياً أيضاً ولكن بالمحصلة هو استحقاق بحسب التكامل وعلاج ونتيجة للعمل البناء في المواجهة.

إن التنوع في الأزمات أو البلاءات والاختبارات بمصطلح السنن يتناسب بحسب التكامل مع الأثر والنتيجة أو مع السنة الممثلة لها، فقد شخص القرآن الكريم هذا التنوع وبيّن أسلوب وطريقة المواجهة ومن ثم تحقيق الغاية التكاملية بالوصول إلى درجة الرضا إذ قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1]. ويلاحظ هنا إن الآيات الكريمات قد استوفت الفكرة في هذا التنوع للبلاء بمفردات مثلت مفاهيماً متكاملة تعدت حدود المصطلح؛ فالشيء المحدد من الخوف الوارد في الآية يجمع كل أشكال وأنواع الأزمات التي قد تصيب الإنسان سواء كانت صحية أو اقتصادية أو اجتماعية وغيرها، فضلاً عن التخصيص بالجانب الاقتصادي أو الاجتماعي كما هو واضح في النص القرآني، غير إن ما يلفت الانتباه إن نفس الآية قد عززت الفكرة ببيان الأسلوب والطريقة التي تقود للتكامل مع سنة أخرى وهي سنة ترتيب الأثر أي سنة التمكين والنصر، وهذا الأسلوب لمواجهة الأزمات هو الصبر الذي يعد الممهد للتكامل، وحالما يحضر الصبر تتحقق البشرى التي أشار لها النص الكريم (وبشّر الصابرين) وهذه البشرى هي بمقدار

(١) البقرة/ ١٥٥.

العطاء الإلهي وليس الإنساني، فهي بشرى تحقيق الغلبة وتجاوز الأزمة وجني الثمار. وهذا المرتكز ظهر في طرح المفسرين أيضاً وإن كان لا يشير صراحة إلى السنن إلا إنه يشير إلى فكرتها، فقد ذكر القرطبي إن المعنى هو: (لنمتحننكم لنعلم المجاهد والصابر علم معاينة حتى يقع عليه الجزاء... وقيل: إنما ابتلوا بهذا ليكون آية لمن بعدهم فيعلموا أنهم إنما صبروا على هذا حين وضح لهم الحق)[1]. ومن المؤكد إن صبر ومواجهة الماضين للابتلاءات هو حافز للاحقين لاسيما بعد اطلاعهم على النتائج والآثار. إن هذا التشخيص القرآني لأثر التكامل بين السنن إنما يقوم على مرتكزات حددها الباري سبحانه بقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[2] ومن أهم هذه المرتكزات: **المرتكز الأول:** الشمولية في الاختبار وعدم الاقتصار على فئة دون أخرى.

المرتكز الثاني: إن الإيمان ودرجاته يعتمد على مدى الثبات في الأزمات ومن ثم التكامل للحصول على المكافأة.

المرتكز الثالث: إن هذه الأزمات هي كاشف عن أهل الصدق وأهل الكذب وما يترتب على ذلك مستقبلاً لكونهم المثال التاريخي الذي يعكس السنة ويحقق التكامل فيها.

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٧٣. وينظر البيضاوي، تفسير البيضاوي، ج ١، ص ٤٣٠.

(٢) العنكبوت/ ٢-٣.

الحسبان قوة أحد النقيضين على الآخر كالظن بخلاف الشك[١] أي إن المعنى هنا هو أظن الناس أن يتركوا بغير اختبار ولا ابتلاء بأن يقولوا (آمنا وهم لا يفتنون) لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم، بل يختبرون ليظهر المخلص من المنافق والصادق من الكاذب[٢]. وبعد هذا الابتلاء تظهر نتيجتهم إما الصدق أو الكذب ومن ثم الأثر إما التمكين وإما الخذلان. وربما نجد إن القرآن الكريم يؤكد البشرى التي أشرنا إليها فيما سبق ويرسخ فكرة الابتلاء والموقف منه، وهذا التأكيد والترسيخ يقوم على الوعد الإلهي وهو المرحلة المتقدمة في إثبات الاستحقاق إذ إن الوعد الإلهي حتمي التحقيق[٣] لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾[٤]. وبذلك تختزل الأطر المادية جميعها ولا يلتفت لها في بيان واستحقاق الأجر، فالتمكين لا يعني الحصول على مقدار مادي من الغنائم أو مقدار عددي من الآثار، بل هو يتبع طبيعة الإيمان والعمل في المواجهة وهي طبيعة معنوية فيكون أثرها معنوياً، وهذا لا يمنع من ازدواج الأثرين معاً فتتكامل سنة التمكين والاستخلاف لتوازي

(١) النسفي، تفسير النسفي، ج ٣، ص ٢٥٠.

(٢) البغوي، تفسير البغوي، ج ٣، ص ٤٦٠.

(٣) الوعد الذي أوعده الله تعالى سماه ابن عربي باليقين، باستخلاف وتمكين المؤمنين. ينظر تفسير ابن عربي، ج ٢، ص ٧٥.

(٤) النور/ ٥٥.

وتتكامل مع سنة الابتلاء. وقد استنتج ابن كثير بأن وعد الله حق ومن ثم فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عُدة ولا عدد[١]، فيما رأى السمعاني إن هذا الاستحقاق إنما جاء نتيجة الصبر على أذى الكفار، فكانوا يصبحون خائفين ويمسون خائفين[٢] وهذا أسلوب للتعاطي مع البلاء ليتم التكامل والوصول إلى التمكين. إن محصلة ما ذكرناه كله تقع تحت مسمى التكامل بين السنن القائم على السبب والنتيجة للوصول إلى الذروة، ويمكن أن نقتبس تعبير ابن قيم الجوزية عن هذا الارتباط والتكامل إذ عبر عنه بجسر الابتلاء الذي يعبر الإنسان من خلاله إلى الهدف والغاية إذ قال: "فإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته وجدت أنه ساقهم به إلى أجلّ الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم للّه من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان"[٣] فهو فعلاً ممر إلى الجنة بكل تفاصيلها الدنيوية والأخروية.

---

(١) تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٣١٠.

(٢) تفسير السمعاني، ج ٣، ص ٥٤٤.

(٣) ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ص ٨٤٧-٨٤٨.

المبحث الثاني
مرحلية تشخيص الأزمة وعلاجها في تكامل السنن

من المعلوم إن التكامل يتجه اتجاهات متعددة في سبيل تحقيق فلسفته وغاياته، لذلك فإن السنن تأخذ منحى تكاملياً يجمع بين التشخيص والعلاج وبشكل مرحلي يفضي إلى زيادة فرص جني الثمار بأقل الخسائر قبل الوصول إلى مرحلة العلاج النهائية التي قد تأتي بعد استنفاد المحاولات كافة. وعلى هذا الأساس فإن جريان السنة العلاجية بالتمكين والنصر أو بالإهلاك يقتضي التكامل مع سنة أخرى وهي سنة الاستدراج والإملاء، وهذا التكامل المرحلي هو نوع من أنواع العدالة التي تعطي الحقوق لمستحقيها وهو بمثابة الترياق والعلاج الناجع لمواجهة الأزمات بأشكالها المختلفة وقد تمثل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1]. والذي تتضح فيه المرحلية التي أشرنا لها بشأن التكامل في السنن والتي قامت على جملة أمور:

الأمر الأول: إن الكافر أو المجرم أو المريض بمرض أخلاقي ينتظر مصيره المحتوم في الأحوال كلها إذا لم يرتدع ويعود لله بحكم العقل.

---

(١) آل عمران/ ١٧٨.

الأمر الثاني: مرور هذا المريض بمرحلة وسطية تمثل سنة الإملاء والاستدراج وهي مرحلة بين الابتلاء والتمكين أو الهلاك، ومرحلة الإملاء فرصة للعودة وإلقاء للحجة أي إنها تتكامل مع ما قبلها وما بعدها من السنن لضمان تحقيق العدالة وليس التصيد لأخطاء الناس.

الأمر الثالث: الموازنة بين الوصول للذروة في الكفر والمخالفة وبين التمكين، ومن ثم فإن هذا التكامل المرحلي قد يفضي إلى عقاب وقد يقود إلى عظيم الثواب، أو بمعنى آخر فإن العلاج يكون بتمكين هذا الإنسان ونصره في مواجهته للأزمة أو الخسران بعد هذه التجربة لمن لم يستفد من فرصة السنن التاريخية.

إن طبيعة الطرح القرآني تشير إلى ذلك التكامل وآثاره في التشخيص والعلاج كما أسلفنا، فقد وجه القرآن الكريم رسالة صريحة إلى الكفار أو إلى من هم ضمن هذا المسمى أو فئة المخالفين للأحكام الإلهية المقدسة بأن الاستمرار في هذا الطغيان حتى بعد الاستدراج والإملاء -أي المساحة المفتوحة للرجوع إلى الله تعالى- سيقود إلى ضررهم بشكل كبير. وقد جاء معنى قوله تعالى: (أنما نملي لهم ليزدادوا إثماً) وفق هذا المفهوم فاللام هاهنا للعاقبة وليست بلام الغرض، أي كأنه قال: إن عاقبة أمرهم ازدياد الإثم[1]، بل إذا تمسكوا بالكفر، فإن ذلك الإملاء يكون وبالاً عليهم وضرراً

(١) الطوسي، التبيان، ج ٣، ص ٥٩. وينظر الطبري، جامع البيان، ج ٤، ص ٢٤٦.

لهم[1]. ولكن هذا لا يمنع من إن هذا الإملاء هو جزء من الرحمة الإلهية بالخلق فهو ضمن الفرص المتاحة لتصحيح المسار وفي النهاية فإن سنة الاستدراج والإملاء أصبحت في تكاملها مع السنن التي قبلها وبعدها بمثابة الحد الفاصل في معالجة الأزمات والتدريب على معالجتها للأجيال اللاحقة. وقد أجاب المفسرون عن سؤال افتراضي يشير إلى إن المقصود من الإملاء الوارد هنا إن الهدف هو إيقاع هؤلاء بالكفر وليس بياناً لعاقبتهم، وهو الأمر الذي يتعارض مع ما ذكرناه من المفهوم التكاملي للسنن في مواجهة الأزمات فضلاً عن مخالفة العدالة والرحمة الإلهية، وقد رد بعض المفسرين بالقول: (إن ظاهر الخطاب ينبئ عن الجزاء لا عن نفس الفعل في العرف، ويؤيد ذلك ما يتصل به من قوله تعالى: (ولهم عذاب مهين)، ونحن لا نمنع من أن يريد تعالى عقوبتهم، وإنما نمنع من إرادته الكفر والمعاصي منهم، وهذه اللام وإن كانت ترد في كلامهم بمعنى "كي"، فإنها ترد أيضاً بمعنى المصير والعاقبة، وليس حملها على الوجه الأول بأولى من حملها على الوجه الثاني، لا سيما إذا انضمت إليها القرائن التي تخصصها به وتحيزها)[2]. ولعل أهم هذه القرائن ما ذكرناه عن العدالة الإلهية فضلاً عن السنن التاريخية ومفهومها الإصلاحي وليس التهديمي ولاسيما مع

(١) الشريف الرضي، حقائق التأويل، ص ٢٨٧. وينظر الطبري، جامع البيان، ج ٤، ص ٢٤٦.

(٢) الشريف الرضي، حقائق التأويل، ص ٢٧٨ – ٢٧٩.

الربط بالجانب التكاملي الذي نحن بصدده. وما يترجم هذا المفهوم ما ذكره القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[1]. أي وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ثم أخذتها بالعذاب[2]، ويرى الرازي إن المراد إن الله تعالى أخر إهلاك الكثير من القرى مع استمرارهم على ظلمهم فاغتروا بذلك التأخير ثم أخذهم سبحانه وتعالى بأن أنزل العذاب بهم، ومع ذلك فعذابهم مدخر إذا صاروا إليه سبحانه وهو تفسير قوله: وإلي المصير.[3]

أي إننا نستطيع أن ندرك ونميز المفهوم التكاملي للسنن وأثره في مواجهة الأزمات بحسب هذا الذكر بما يأتي:

أولاً: تحقق العنصر الأول الذي يؤدي إلى جريان السنن الإلهية وهو الظلم.

ثانياً: الحاجة إلى الإملاء أو الانتظار وهذا يعني جريان سنة الاستدراج أو الإملاء كفرصة للتوبة.

ثالثاً: الأثر والمعطى والذي يفعل إما سنة التمكين في حالة الرجوع إلى الله أو سنة الإهلاك عند بقائهم على الظلم. وبمحصلة هذه النقاط فإن الأزمات تواجه بالتكامل وتكون النتيجة قائمة على قوانين ونواميس ثابتة لا تبدل ولا تحول.

---

(١) الحج/ ٤٨.

(٢) النسفي، تفسير النسفي، ج ٣، ص ١٠٨.

(٣) تفسير الرازي، ج ٢٣، ص ٤٦.

وفي بعض الأحيان نجد إن الإشارة القرآنية تذكر النتيجة الإجمالية مباشرة وهي الإهلاك دون الأمور التكاملية التي تتعلق بالسنن حتى الوصول إلى مرحلة الإهلاك وذلك نتيجة لاستمرار الظلم وحضور جميع المراحل التي أشرنا لها سابقاً إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[1] إذ أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه أهلك من كان قبل هذه الأمة من القرون، وهو جمع قرن، وسمي أهل كل عصر قرناً لمقارنة بعضهم لبعض، والقرن هو المقاوم لقرينه في الشدة، وإن هذه الأمم التي أهلكهم لم يكونوا مؤمنين ولو أبقاهم الله لم يؤمنوا بالرسل الذين أتوهم والكتب التي جاؤوهم بها، ولما كان ذلك المعلوم من حالهم استحقوا من الله تعالى العذاب فأهلكهم[2]. أي إن القرآن الكريم بيّن عاقبة هؤلاء فأخذهم بظلمهم الذي يعرفه الله تعالى أو بالأحرى يعرف عاقبته فرتب الأثر على هذا الأساس وهو الإهلاك، وقد ذكر السمرقندي إنهم لم يصدقوا الرسل ولم يرغبوا في الإيمان، ويقال: وما كانوا ليصدقوا بنزول العذاب بما كذبوا من قبل يوم الميثاق[3]. وكأن الأمر يتعلق بحدوث العقوبة والإهلاك للأقوام بما لم يحصل في الماضي، إذ نجد إن التبريرات اتجهت باتجاهين؛ الأول هو

(١) يونس/ ١٣.

(٢) الطوسي، التبيان، ج ٥، ص ٣٤٨.

(٣) تفسير السمرقندي، ج ٢، ص ١٠٧.

علم الله تعالى بعدم إيمانهم بالرسل حتى إذا أبقاهم الله تعالى، فيما كان الاتجاه الثاني هو استحضار كذبهم ونزول العذاب بهم من قبل يوم الميثاق. وفي الأحوال كلها فإن هذه العاقبة كانت مرتبطة بذلك التكامل الذي أشرنا إليه، وهو ترابط وتكامل حتمي بين السنن يقوم على العمل أو الظلم وعلى الإملاء ومن ثم الإهلاك وهو جزاء من نوع الفعل على عكس التمكين والنصر الذي يبنى على نوع آخر من أنواع التعاطي مع الأمور.

المبحث الثالث
تنمية الإيمان بالرعاية الإلهية في التصدي للأزمات

إن التناغم في السنن التاريخية والتكامل فيما بينها إنما يتضح أساساً من الإيمان بوحدة القانون والقاعدة والناموس الثابت الذي يتحكم في جريان تلك السنن، فهناك عموميات تحكم هذا الجريان وهي نفسها خصائص السنن مثل الثبات والشمولية ومن ثم فإن التكامل حاصل لا محالة لأن القانون ثابت غير متغير مما يعني تنمية مفهوم الرعاية الإلهية طالما إن جريان السنن يتم بها وبقوانينها. حتمية هذه السنن تتأتى من الرعاية الإلهية التي تستدعي حضورها بمراحلها وأنواعها حتى تكون مؤثرة في معالجة المشكلات والأزمات، وهذا يعني إن التكامل يؤكد الإمكانية في المعالجة بل ويثقف عليها وينميها بالشكل الذي يستوعب مقدار أهميتها أو نجاعتها في تحقيق المراد. لقد أكّد القرآن الكريم على هذا الاشتراك والتكامل بتوحيده لمفهوم السنة وثباتها وكأنها عملية ربط بين الماضي والحاضر لمعالجة المشكلات لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1]، وكذلك قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[2]. ومن هنا نجد إن الآيات

(١) الفتح/ ٢٣.

(٢) الأحزاب/ ٦٢.

الكريمات عبرّت عن التنمية والتثقيف بالرعاية الإلهية في التصدي للأزمات، فقد أشار الطبري مثلاً بأن هذا الطرح القرآني يهدف إلى تذكير المؤمنين بخذلان الله تعالى لأهل الكفر حين المواجهة معهم كما هو الحال في الأمم الماضية[١]. ولكن هذا التوجيه الخاص قد لا يعكس طبيعة الطرح القرآني العام الذي يهدف إلى بيان العناية الإلهية والرعاية الربانية في الأزمات جميعها بغض النظر عن نوعها أي إن جريان السنن بالمجمل هو مغزى هذه الآيات لحل المشكلات والتصدي للانحرافات ومعالجة الأزمات. فالقوانين الإلهية هي الحاكمة، وما أن يرتكز الإنسان على المرتكزات الأصولية التي تنسجم مع الفطرة في مواجهة الأزمة أياً كان نوعها إلاّ وجرت الأمور بتلك الرعاية والعناية ولعل ما نقل لنا القرآن الكريم من قصص الأنبياء عليهم السلام[٢] تمثل خير مصداق ودليل على ذلك.

---

(١) جامع البيان، ج ٢٦، ص ١٢٠.

(٢) سورة الأنبياء/ ٦٩-٧٠؛ ينظر في معاني هذه الآيات الكريمات الثعلبي، تفسير الثعلبي، ج ٦، ص ٢٨١.

الفصل الخامس
بناء السنن التاريخية لاستراتيجيات التكامل المعرفي

ترتبط الأحداث التاريخية باتجاهات وعلوم أخرى قد يرى بعضهم أنها بعيدة كل البعد عنها بداعي التخصص وما شاكل ذلك، غير أن المنطق يثبت عكس ذلك؛ فالعلوم متداخلة جداً إذ لا يمكن أن نعزل العلوم الإنسانية عن العلوم الصرفة إذا ما أردنا أن ننهض بالبحث العلمي والإنساني.

ومن هنا لا بد أن ندرس العلاقة بين منطق التاريخ وعلاقته وتكامله مع العقائد والأطر المعرفية الصرفة، فهناك انعكاسات وإيحاءات واضحة في الإثباتات العقائدية وفي الطروحات العلمية الصرفة بكل أشكالها، سواءً البيولوجية أو الفيزياوية أو التكنولوجية عموماً، وهو الأمر الذي بات من الضروري إيضاحه وبيان حيثياته.

ولعل من أوضح المصاديق التي تبين هذا الربط والارتباط والبناء السنني - بعيداً عن الإعجاز المطلق- ما دار بين العلماء بخصوص موضوع الإسراء والمعراج الذي تداخلت به العلوم الصرفة والتفسيرات العلمية البحتة مع العلوم الإنسانية ولاسيما التاريخ، وكذلك العقائد من جانب آخر. ومن هذه الأساسيات العقائدية الاستدلال على البعث والإحياء يوم القيامة، وهذا الأمر ليس بالاعتماد على ما رآه الرسول (ﷺ) فقط وإنما بأسلوب المعراج، فضلاً عن المفهوم الإعجازي المقنع لبعض الفئات التي تتعامل مع الرسول (ﷺ) وفق منطق المقارنة مع معجزات الأنبياء، هذا إلى جانب

إثبات قدرة الله تعالى؛ فالآية القرآنية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ...﴾[1] تشير إلى هذه القدرة بالأساس، وكذلك الاستدلال على صدق النبوة ومصدريتها، وهي رد على القائلين بأن الرسول محمداً (ﷺ) هو من جاء بالقرآن وليس من الله تعالى، لاسيما وأن تكملة الآية الكريمة تدلل على عبودية الرسول (ﷺ) لله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ...﴾.

أما بالنسبة لدراسة هذه الحادثة من حيث علاقتها بالأطر المعرفية فهي ضربة للعلوم الغربية وعجزها عن الإتيان بما أكدته الحادثة من صور علمية، إذ إن أمر الإسراء والمعراج لا يعني في إعجازه أنه خارج عن النواميس، وإنما يؤكد عجز علوم العصر عن الوصول إليه، وكذلك إبراز ثقافة المنطق العلمي في الإسلام والتي تعد مغيبة، والتأكيد في التعليم العالي على ما وراء النص والحادثة وبشكل بعيد عن السطحية؛ فهذه العلاقة التاريخية مع العلوم الصرفة تفتح الباب أمام جميع الباحثين في الجامعات وفي جميع الاختصاصات بدراسة الكيفية العلمية للإسراء والمعراج بدل دراستها من الغرب الرافضين للإعجاز، ودعوة المعنيين في المناهج لإضافة حادثة الإسراء والمعراج بشكل رسمي لمناهج أقسام التاريخ ولمناهج أرباب الفيزياء والجغرافيا والهندسة على حد سواء.

وعلى العموم، فإن الدراسة قدمت نماذج كثيرة وواضحة لتلك العلاقة وذلك الانعكاس، ولعل الاطلاع عليها بشكل كامل يزيد الصورة وضوحاً.

---

(١) الإسراء/١.

المبحث الأول
الإطار التاريخي للإسراء والمعراج ومعطياته الفكرية

من المعلوم أن حادثة الإسراء والمعراج مثلت انعطافة مهمة وفق المنطق التاريخي؛ لأنها جمعت الكثير من المعطيات التي قد لا نجدها في الحوادث الأخرى، فهي ذات إطار تاريخي لا يخلو من المعطى العقائدي والعلمي والفلسفي وإيحاءات أخرى تخرج عن نطاق التاريخ لتمثل العلاقة المعنوية البناءة معه، وهي المعطيات التي سندرسها في مباحث هذه الدراسة بعد أن ننطلق من الإطار الذي أسلفنا الإشارة إليه وهو التاريخي للحادثة وفلسفتها السببية والنقاش الدائر حولها.

لقد ذكر القرآن الكريم هذه الحادثة وبين ملامحها الرئيسة بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]. والمراد بقوله "أسرى بعبده" أي جعل البراق يسري به، كما يقال "أفضيت كذا" أي جعلته يمضي[2]؛ إذ أسري برسول الله (صلى الله عليه وآله) ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم منه إلى السماء.[3]

---

(١) الإسراء/١.

(٢) ابن حجر، فتح الباري ١٥٢/٧.

(٣) ابن عبد البر، الدرر ص٦٥.

وربما نجد استهزاء المشركين بهذا الخبر حينما أخبرهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ فقد ورد عنه (ﷺ) القول إنه ليلة أسري به وأصبح بمكة مر به أبو جهل فقال: هل كان من شيء؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): "إني أسري بي الليلة إلى بيت المقدس". قال أبو جهل: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: "نعم". قال: فإن دعوت قومك أتحدثهم بذلك؟ قال: "نعم". قال: يا معشر بني كعب بن لؤي! قال: فانفضت إليه المجالس حتى جاؤوا إليهم فقال: حدث قومك بما حدثتني، فحدثتهم؛ قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً...[1]

فوصف لهم الرسول (ﷺ) البراق وسيلة تنقله وهو دابة فوق الحمار ودون البغل، وكان معه جبرائيل (عليه السلام)، وكيف مر بمناطق يعرفونها كدليل على قوله، وقد ذكر لهم بعض الأحداث التي تثبتوا منها فيما بعد ونقل لهم ما حدث بعد ذلك من نقل في السماء ولقاء الأنبياء (عليهم السلام).[2]

وقد اختلف السلف في الإسراء والمعراج هل وقعا في ليلة واحدة؟ وإليه ذهب الجمهور من المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواترت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة[3]. وكان ذلك بمكة (ﷺ) المغرب في المسجد، ثم أسري

---

(١) ابن حجر، فتح الباري ١٥٣/٧.

(٢) ابن حجر، فتح الباري ١٥٣/٧.

(٣) ينظر الذهبي، تاريخ الإسلام ٢٧١/١.، الحطاب الرعيني، مواهب الجليل ٧/٢.

به في ليلته ثم رجع فصلى الصبح في المسجد الحرام؛ فأما الموضع الذي أسري إليه فلقد كان إلى بيت المقدس وقد نطق به القرآن[١]، وقال بعضهم: كان الإسراء في ليلة والمعراج في ليلة، والمراد بالإسراء الذهاب إلى بيت المقدس وبالمعراج العروج إلى السماء.[٢]

وقد أجمع العلماء على حدوث الإسراء والمعراج قبل الهجرة مع اختلاف بسيط في التحديد المباشر؛ فقيل قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً، وقيل قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل قبل الهجرة بخمس سنين[٣]. ويقول ابن حجر: إن استناد أصحاب هذه الآراء جاء على أساس فرض الصلاة الذي اختلف فيه، فقيل كان من أول البعثة وكان ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، وإنما الذي فرض ليلة الإسراء الصلوات الخمس.[٤]

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام ٢٧٢/١.

(٢) الحطاب الرعيني، مواهب الجليل ٧/٢.

(٣) ابن حجر، فتح الباري ١٥٤/٧.

(٤) فتح الباري ١٥٣/٧.

المنطق العقلي في إثبات الإطار التاريخي

لقد اتفق أغلب العلماء على أن الرسول (ﷺ) أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن يكون رسول الله (ﷺ) رأى قبل ذلك مناماً ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.[١]

وهذا ما يفسر لنا عدم تصديق الناس الحادثة وهو ما جسده القرآن الكريم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[٢] أي اختباراً لهم وامتحاناً. قال ابن عباس: هي رؤيا أُريها رسول الله (ﷺ)، وهذا مذهب جمهور السلف والخلف من أن الإسراء كان ببدنه وروحه[٣] صلوات الله عليه، كما دل على ذلك ظاهر السياقات من ركوبه وصعوده في المعراج وغير ذلك، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾.[٤]

والتسبيح إنما يكون عند الآيات العظيمة الخارقة، فدل على أنه بالروح والجسد والعبد عبارة عنهما، وأيضاً فلو كان مناماً لما بادر كفار قريش إلى

---

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير ٢٥/٣، الشنقيطي، أضواء البيان ١٦٥/٣.

(٢) الإسراء/٦٠، الآية ٦٠.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤٠/٣، وينظر العيني، عمدة القاري ١٧١/٢٥، الشنقيطي، أضواء البيان ١٦٦/٣.

(٤) الإسراء/١.

التكذيب به والاستبعاد له إذ ليس في ذلك كبير أمر، مما تدل على أنه أخبرهم بأنه أسري به يقظة لا مناماً.[١]

وقد رد العلماء على ما ورد من قول السيدة عائشة: "ما فقد جسد رسول الله (ﷺ) ولكن الله أسرى بروحه"[٢]، وجاءت الردود باتجاهين:

أولاً: أن قول السيدة عائشة "ما فقد جسده" لم يحدث عن مشاهدة؛ لأنها لم تكن حينئذ زوجة ولا في سن من يضبط، ولعلها لم تكن ولدت، فإذا كان كذلك تكون قد حدثت بذلك عن غيرها، فلا يرجح خبرها على خبر غيرها.[٣]

ثانياً: حاول بعضهم أن يخرج هذا الكلام بالقول إنه يقظان وبقي في فراشه عندما أسري بروحه وأعرج بها، أي إن الإسراء قد يكون وقع بروحه حقيقة وهو يقظان لا نائم، وركب البراق وجاء بيت المقدس وصعد السماوات وعاين ما عاين حقيقة ويقظة لا مناماً، ولعل هذا مراد السيدة عائشة ومراد من تابعها على ذلك لا ما فُهم من أنهم أرادوا بذلك المنام.[٤] وقد

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤٠/٣، وينظر العيني، عمدة القاري ١٧١/٢٥، الشنقيطي، أضواء البيان ١٦٦/٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤٠/٣، الشنقيطي، أضواء البيان ١٦٦/٣.

(٣) ينظر العيني، عمدة القاري ١١٦/١٥.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٤١/٣.

أردف ابن كثير القول منبهاً: "ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء طبق ما وقع بعد ذلك فإنه (ﷺ) كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح".[1]

وعلى العموم، فإن هذه النقطة لا تخرج عن الإطار العام برفض القول بعدم وجود الإسراء والمعراج المادي، وإنما تؤكد من إحدى جهاتها أن الإسراء والمعراج تم بجسد وروح النبي (ﷺ).

غير أن أبرز النقاشات والطروحات العلمية ما جاء به الرازي في تفسيره وقد أسماها الأدلة العقلية على الإسراء والمعراج الجسماني والروحي؛ فقد ربط ذلك بجملة أمور أهمها: أنه إذا كان القول بمعراج النبي (ﷺ) في الليلة الواحدة ممتنعاً في العقول، كان القول بنزول جبرائيل (عليه السلام) من العرش إلى مكة في اللحظة الواحدة ممتنعاً، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان طعناً في نبوة جميع الأنبياء (عليهم السلام)، والقول بثبوت المعراج فرع على تسليم جواز أصل النبوة.[2] وهو الأمر الذي لا يستطيع أحد إنكاره لأنه من المسلمات الأكيدة؛ فالمعراج هنا يمثل جزءاً من كل، فالإطار العام مُسلّم به والمفروض أن الجزء من هذا الإطار مُسلّم به أيضاً.

كما أن الرازي أجرى مقاربة بين وجود إبليس وإثبات المعراج، إذ أشار إلى أن أكثر أرباب الملل والنحل يسلمون بوجود إبليس ويسلمون أنه هو الذي يتولى إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم؛ فلما سلموا جواز مثل هذه الحركة

---

(١) البداية والنهاية ١٤١/٣.

(٢) التفسير ١٤٩/٢٠.

السريعة في حق إبليس، فالمفروض أن يسلموا جوازها في حق أكابر الأنبياء وكان ذلك أولى[١]. ويبدو أن الرازي ينطلق من باب إلزام المقابل بالاعتقادات التي يعتقد بها ومن باب "ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم."

وقد انسحب هذا الأسلوب على المقارنة مع خصوصية نبي الله سليمان (عليه السلام)؛ فقد جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان (عليه السلام) إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة، بل الحس يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها إلى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة، وذلك أيضاً يدل على أن مثل هذه الحركة السريعة في نفسها ممكنة[٢].

وكذلك فإن ما دل عليه القرآن من إحضار عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر يدل على جواز ذلك.[٣]

وقد أورد الرازي دليلاً علمياً يتعلق بالإبصار، إلا أنه دليل يحتاج مراجعة بعد التطور العلمي الحديث؛ فهو يرى أن من الناس من يقول إن الحيوان إنما يبصر المبصرات بخروج الشعاع من البصر واتصالها بالمبصر، فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا إلى زحل في تلك اللحظة اللطيفة، وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السرعة

---

(١) التفسير ١٤٩/٢٠.

(٢) الرازي، التفسير ١٤٩/٢٠.

(٣) الرازي، التفسير ١٤٩/٢٠.

من الممكنات لا من الممتنعات[1]. ووجه اعتراضنا على هذا الأمر أن العلم الحديث أثبت أن الإبصار يتم بالضوء الساقط على العين وليس الخارج منها وهو ما يسمى بالانعكاس وهو من البديهيات العلمية.

غير أن المحصلة النهائية لهذا الطرح تثبت عدم امتناع ما حصل للرسول (ﷺ) من الناحية العقلية؛ فما دامت هذه الحركة ممكنة الوجود في نفسها وجب أن لا يكون حصولها في جسد محمد (ﷺ) ممتنعاً لأن الأجسام متماثلة في تمام ماهيتها، فلما صح حصول مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام، فيلزم من مجموع هذه المقدمات أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه، أقصى ما في الباب أنه يبقى التعجب، إلا أن هذا التعجب غير مخصوص بهذا المقام بل هو حاصل في جميع المعجزات؛ فانقلاب العصا ثعباناً ثم تعود في الحال عصاً صغيرة كما كانت أمر عجيب، وكذا سائر المعجزات.[2]

ولم يُذكر المعراج صراحة كما كان الحال بالنسبة إلى الإسراء، وربما يكون السر في ذلك هو أن الإسراء أمر قريب إلى الحس فالتصديق به يكون أيسر وأقرب، وإذا كانوا قد صعب عليهم التصديق بالإسراء بل واستهزؤوا وشنعوا عليه (ﷺ) لذلك، فقد تدرج في إخباره لهم بالإسراء والمعراج، فأخبرهم أولاً بالإسراء، أما المعراج فأخبر به أولياءه المؤمنين القادرين على

---

(١) الرازي، التفسير ١٤٩/٢٠.

(٢) الرازي، التفسير ١٤٩/٢٠.

التحمل والتعقل، ثم صار يتوسع في إخباره لغيرهم بذلك في الأوقات المناسبة وبحسب ما تقتضيه المصلحة ومتطلبات الدعوة إلى الله تعالى؛ فهو داعية حكيم من الطبيعي أن يهتم بالركيزة الإيمانية وأن لا يدخلها في أجواء ليس لها القدرة على استيعابها ولا على مواجهة أخطار الانحراف فيها.[1]

(١) جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي ٢٦٥/١.

الفلسفة السببية للإسراء والمعراج

ليس هناك من شك أن حادثة الإسراء والمعراج، كما هي الحوادث الأخرى، لها فلسفة وأهداف قد لا يعيها الكثير؛ وذلك لأنها غير ظاهرية، ولعل الفكرة الأساس في الموضوع هي بيان مقام الرسول (ﷺ)، لاسيما وأن الجانب الإعجازي يمس الوتر الذي يحرك معظم عقليات الناس آنذاك، إذ إن الإيمان لم يكن قد تعمق في نفوسهم بعد، مما يعني أن هذه الحادثة ربما تتلاءم مع ما يفكر به ويطلبه هؤلاء أصحاب العقليات المادية.

فإذا كان مقام العبودية هو أسمى مقام يبلغه الإنسان في حياته، فإن آية الإسراء قد كرمت رسول الله (ﷺ) بإطلاق وصف العبودية عليه فقالت (عبده) للدلالة على مراقي الطاعة والعبودية لله تبارك وتعالى، حتى استحق شرف الإسراء حيث لم يسجد جبينه (ﷺ) لشيء سوى الله ولم يطع ما عداه، وقد بذل كل وسعه وخطا كل خطوة في سبيل مرضاته تعالى.[1]

فقد ذكر الشيخ ناصر مكارم من هذا السفر الإعجازي أن يشاهد رسول الله (ﷺ) آيات العظمة الإلهية، وقد استمر سفر الإسراء إلى المعراج صعوداً في السماوات لتحقيق هذا الغرض، وهو أن تمتلئ روح الرسول أكثر بدلائل العظمة الربانية وآيات الله في السماوات، ولتجد روحه السامية في هذه الآيات زخماً إضافياً يوظفه في هداية الناس إلى رب

(١) ناصر مكارم، الأمثل في كتاب الله المنزل ٣٨٨/٨.

السماوات والأرض؛ وبالرغم من أن الرسول (ﷺ) كان عارفاً بعظمة خلقه ولكن متى كان السماع كالرؤية؟![1] ونقرأ في سورة النجم التي تلت سورة الإسراء وتحدثت عن المعراج قوله تعالى :﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾.[2]

كما أن إكرام الله لرسوله (ﷺ) بمعجزة الإسراء والمعراج لم يكن أمراً عفوياً عابراً، بل هو بسبب استعدادات رسول الهدى (ﷺ) وقابلياته العظيمة التي تجلت في أقواله وأفعاله، هذه الأقوال والأفعال التي يعرفها الله ويحيط بها.[3]

ولا ننسى أن الهدف المهم الثاني يتعلق ببيان فضل هذه المساجد التي ذكرها القرآن وبيان قداستها المعنوية والمادية؛ فإن تعبير الآية ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[4] تفيد بأنه علاوة على قدسية المسجد الأقصى فإن أطرافه أيضاً تمتاز بالبركة والأفضلية على ما سواها، ويمكن أن يكون مراد الآية البركة الظاهرية المتمثلة بما تهبه هذه الأرض الخصبة الخضراء من مزايا العمران والأنهار والزراعة، ويمكن أن تُحمل البركة على قواعد الفهم المعنوي فتشير حين ذاك إلى ما تمثله هذه الأرض في طول التاريخ من كونها مركزاً

(١) ناصر مكارم، الأمثل في كتاب الله المنزل ٨/ ٣٩٠.

(٢) النجم/١٨.

(٣) ناصر مكارم، الأمثل في كتاب الله المنزل ٨/ ٣٩٠.

(٤) الإسراء/١.

للنبوات الإلهية ومنطلقاً لنور التوحيد وأرضاً خصبة للدعوة إلى عبودية الله.[1]

هذا فضلاً عن الاستدلال على تنزيه الله تبارك وتعالى عن كل عيب ونقص[2]، والإشارة إلى عظمة آيات الله بحيث إن رسول الله (ﷺ) على علو مقامه واستعداده الكبير لم ير من هذه الآيات في سفره الإعجازي سوى جزء معين منها.[3]

(١) ناصر مكارم، الأمثل في كتاب الله المنزل ٨/ ٣٩٠.

(٢) ناصر مكارم، الأمثل في كتاب الله المنزل ٨/ ٣٩٠.

(٣) ناصر مكارم، الأمثل في كتاب الله المنزل ٨/ ٣٩٠.

المبحث الثاني
إيحاءات توجيه الحادثة بمدلولات فكرية إثباتية للعقائد والمفاهيم الدينية

قد لا يخفى على الباحثين أن ما طرحناه فيما سبق عن المنطق التاريخي وأبعاده الفكرية يعد مقدمة وحافزاً للخوض في إيحاءات أخرى لم تأخذ طابع الكلاسيكية والصورة الظاهرية، وإنما يمكن استنتاجها بالنظر لطبيعة الحادثة وما دار حولها، ولعل من أهم تلك الإيحاءات ما يتعلق بتوجيه الحادثة بمدلولات فكرية إثباتية للعقائد والمفاهيم الدينية؛ إذ إن التعمق الواعي في الإسراء والمعراج يضعنا في مواجهة تلك الإيحاءات والتي يمكن إجمالها بما يأتي:

الإيحاء الأول: الاستدلال على البعث والإحياء يوم القيامة: إن ما حدث في الإسراء والمعراج وضعنا أمام صورة حية إثباتية لعقيدة مهمة كانت في حيز الأهداف المتوخاة من هذه الحادثة، وهي عقيدة (البعث والإحياء) يوم القيامة؛ فما جرى وما نقله الرسول (ﷺ) يفصح عن نية لترسيخ تلك العقيدة والتذكير بها، وهذا يدل على الحاجة المرحلية في ترسيخ العقائد لاسيما مع بداية الدعوة، ليس بالاعتماد على ما رآه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقط وإنما بأسلوب المعراج أيضاً. والفكرة في الموضوع هي إظهار القدرة على البعث والإحياء بأسلوب يدعو إلى المقارنة والاستدلال، وربما نجد أن المفسرين دائماً ما يطرحون مثل هذه المقارنات والاستدلالات

كقول الآلوسي بأن من قدر على خلق تلك الأجرام العظام لا يعجزه إعادة أجسام هي لا شيء بالنسبة إلى تلك الأجرام.[١] أو كقول بعضهم إن البعث والإحياء في سرعة القدرة على الإتيان بهما كلمح البصر أو هو أقرب.[٢] وهذا لا يخرج عن مقصدنا بالإحياء في حادثة الإسراء والمعراج لإثبات تلك العقيدة والقدرة الإلهية المطلقة.

الإيحاء الثاني: إثبات الامتداد النبوي و أفضلية الرسول (ص): مثلت حادثة الإسراء والمعراج إثباتاً منطقياً للامتداد النبوي أو الامتداد في الرسالة السماوية، ليس بما يتعلق بالالتقاء المادي بالأنبياء (عليهم السلام) فقط، وإنما بالتشابه والتماثل في نوع الإعجاز من حيث المبدأ مع الفارق لصالح خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ). فالمفهوم الإعجازي المقنع لبعض الفئات التي تتعامل مع الرسول (ﷺ) وفق منطق المقارنة مع معجزات الأنبياء (عليهم السلام) قد ظهر بشكل واضح من خلال هذه الحادثة. وقد شخص العلماء ذلك التشابه في التعامل مع الأنبياء (عليهم السلام) واعتبروه دليلاً عقلياً على حدوث الإسراء والمعراج كما أسلفنا؛ فقد جاء أن الرياح كانت تسير بسليمان (عليه السلام) إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة.[٣]

---

(١) تفسير الآلوسي ١١٢/٢٢.

(٢) ابن زمنين، تفسير ابن زمنين ٤١٢/٢. وينظر السمرقندي، تفسير السمرقندي ٢٨٤/٢.

(٣) الرازي، التفسير ١٤٩/٢٠.

وكذلك إحضار عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر.[١] بل هو حاصل في جميع معجزات الأنبياء (عليهم السلام).[٢]

الإيحاء الثالث: إثبات مصدرية النبوة: وهو إيحاء مكمل للإيحاء السابق، ونقصد هنا الاستدلال على صدق النبوة ومصدريتها، وهي رد على القائلين بأن الرسول محمداً (ﷺ) هو من جاء بالقرآن وليس من الله تعالى، لاسيما وأن آية سورة الإسراء الأولى عبودية الرسول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ...﴾[٣]. وما سلف ذكره عن مقام العبودية المؤهل لحصول الرسول على أعلى المقامات يؤكد ذلك؛ فإذا كان مقام العبودية هو أسمى مقام يبلغه الإنسان في حياته، فإن آية الإسراء قد كرمت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بإطلاق وصف العبودية عليه فقالت "عبده" للدلالة على مراقي الطاعة والعبودية التي قطعها الرسول لله تبارك وتعالى حتى استحق شرف الإسراء كما سلف.[٤]

الإيحاء الرابع: إثبات القدرة الإلهية: وقد آثرنا تأخير هذا الإيحاء والإثبات لأنه تحصيل حاصل ينطلق من كل الإثباتات السابقة، وهو تحقيق لهدف وفلسفة أخرى من مقاصد الإسراء والمعراج الكثيرة وهو

---

(١) الرازي، التفسير ١٤٩/٢٠.

(٢) الرازي، التفسير ١٤٩/٢٠.

(٣) الإسراء/١.

(٤) ناصر مكارم، الأمثل في كتاب الله المنزل ٣٨٨/٨.

مخاطبة الناس على قدر عقولهم وإثبات قدرة الله تعالى؛ فالآية القرآنية السالفة[1] تشير إلى هذه القدرة بالأساس. إن تتبع ردود الفعل تجاه خبر الإسراء والمعراج على المستوى الآني والبعيد يضعنا أمام حقيقة مهمة هي أن إثباته هو إثبات لقدرة الله تعالى؛ إذ نقلت المصادر كيفية إخبار الرسول (ﷺ) لقومه بالأمر ومستوى الاستيعاب لفكرة لا تتوافق مع طبيعة مقاييسهم البسيطة، فشعروا بالفرق حينما وجدوا أنفسهم أمام خالق هذا الكون والقادر والحكيم في صنعه.[2]

وهناك إيحاءات أخرى يمكن الإشارة إليها بما يأتي:

١- أن الحادثة تمثل مصداقاً للقواسم المشتركة بين كل المذاهب والأطراف الإسلامية، فحق التأكيد عليها كأداة للتوحيد.

٢- أن الحادثة أداة إقناع لأصحاب الشرائع الأخرى بأفضلية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وخاتميته على الأنبياء (عليهم السلام)، سواء على من رُفع إلى السماء أو على من أُلقي في النار أو على من افتُدي من الذبح أو من سَلِم من الغرق.

٣- أن الحادثة توحي بنتيجة حتمية للصراع اليهودي الإسلامي وهي سيادة الإسلام، لاسيما وأن ما ذُكر عن صلاته (ﷺ) ومعراجه من المسجد الأقصى تدل على ذلك.

---

(١)الإسراء/١.

(٢)ابن حجر، فتح الباري ١٥٣/٧.

المبحث الثالث
إيحاءات توجيه الحادثة لخدمة الجامعات والمنطق العلمي

لم تخلُ حادثة الإسراء والمعراج من إيحاءات علمية صرفة تكاد تكون موجهة لخدمة البحث العلمي والنطاق الأكاديمي الذي تمثله الجامعات وغيرها من المؤسسات العلمية اليوم؛ إذ إن بعض صور الحادثة جمعت بين أمرين:

الأمر الأول: التأكيد على الارتباط بين الجانب العلمي والديني والسير وفق النواميس الطبيعية والتي ربما لم يصل إليها العلم اليوم؛ فلا يعني الإعجاز الاستحالة وإنما عجز عقولنا عن الوصول إليه.

الأمر الثاني: العلاقة بين العلوم الإنسانية من جهة وهذه الحوادث والعلوم الصرفة من جهة أخرى.

ولعل أهم إيحاءات الإسراء والمعراج على المستوى العلمي والأكاديمي والارتباط بين العلوم الإنسانية والصرفة يمكن إجمالها بما يأتي:

الإيحاء الأول: إبراز ثقافة المنطق العلمي في الإسلام والتي تعد مغيبة في التعليم العالي على ما وراء النص والحادثة، وبشكل بعيد عن السطحية، وهذا الأمر يخدم البحث العلمي بكل أشكاله.

الإيحاء الثاني: فتح الباب أمام جميع الباحثين في الجامعات وفي جميع الاختصاصات بدراسة الكيفية العلمية للإسراء والمعراج بدل دراستها من الغرب الرافضين للإعجاز، لاسيما وأن العلوم الإنسانية معنية بالموضوع وبما يساهم برسم الإطار العلمي بعد التعاون مع العلوم الصرفة. وما يدفعنا لذلك هو أن البعض من أرباب العلوم الغربية يطرح إشكالات قابلة للمناقشة دون أن يتصدى لها المتخصص بالعلوم الصرفة وهو ما نحتاجه اليوم كثيراً، وتلك الإشكالات تجمع بأمور تتعلق بكيفية الانفلات من قوة الجاذبية الأرضية، وخلو الفضاء الخارجي من الهواء الذي هو القوام في حياة الإنسان، والحرارة الشديدة الحارقة والبرودة القاتلة وذلك بحسب موقع الإنسان في الفضاء من الشمس، وأيضاً خطر الإشعاعات الفضائية القاتلة كالأشعة الكونية والأشعة ما وراء البنفسجية وأشعة إكس، وكذلك مشكلة فقدان الوزن التي يتعرض لها الإنسان في الفضاء الخارجي، ومشكلة الزمان حيث تؤكد علوم اليوم على أنه ليست هناك وسيلة تسير أسرع من سرعة الضوء[1]، والذي يريد أن يجول في سماوات الفضاء الخارجي يحتاج إلى سرعة تكون أسرع من سرعة الضوء. وقد أجيب بالإجمال على هذه الإشكالات بأنه في عصرنا الحاضر وبعد أن أصبحت الرحلات الفضائية بالاستفادة من معطيات العلوم أمراً عادياً،

(١) ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٨/٢٩٣-٢٩٧.

فإن خمساً من المشاكل الست الآنفة تنتفي وتبقى فقط مشكلة الزمن، وهذه المشكلة تُثار فقط عند الحديث عن المناطق الفضائية البعيدة جداً، والمعراج لم يكن حدثاً عادياً، بل أمر إعجازي خارق للعادة بالقدرة الإلهية، وكذلك الحال في كافة معجزات الأنبياء، وهذا يعني عدم استحالة المعجزة عقلاً[1]. ونود أن نوضح هنا أن أمر الزمن لا يعني الخروج على النواميس الطبيعية والعلمية وإنما هو دلالة على عجز علوم العصر عن مواكبة هذه الجزئية مثل ما واكبت الجزئيات الأخرى؛ فالعلم يثبت في كل يوم جهله بالكثير من نواميس الطبيعة التي تحتاج بحثاً واستقصاءً كبيرين.

الإيحاء الثالث: تشخيص سبب توجه أقسام التاريخ الإسلامي في الجامعات للتأكيد على صور علمية هي في الأساس خارج الاختصاص، والسبب بلا شك هو تقصير الآخرين في طرحها مما يجعل دراستها -بعد التنسيق معهم- أمراً خارج حدود الاختيار.

الإيحاء الرابع: بيان الحاجة إلى توصية المعنيين في المناهج بإضافة حادثة الإسراء والمعراج بشكل رسمي لمناهج أرباب الفيزياء والجغرافيا والهندسة وغيرها من العلوم الصرفة أسوة بالعلوم الإنسانية بحثاً عن التكامل في الطرح.

---

(١) ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٢٩٧/٨.

الإيحاء الخامس: ضرورة إبراز دور الجامعات في الرد على الدعوات الظلامية التي تسيء لشخص ومقام الرسول محمد (ﷺ)، وذلك بإظهار صورته التي طُرحت في الإسراء والمعراج وكيف صلى بالملائكة والأنبياء؛ قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾.[1]

الإيحاء السادس: أن الحادث ضرب للعلوم الغربية وعجزها عن الإتيان بما أكدته الحادثة من صور علمية؛ فأمر الإسراء والمعراج لا يعني في إعجازه أنه خارج عن النواميس، وإنما يؤكد عجز علوم العصر عن الوصول إليه.

الإيحاء السابع: أن الحادثة تأكيد لمعجزات علمية أخرى حدثت مع الرسول (ﷺ) وهي تحتاج تخريجاً علمياً.[2]

وعليه، فإن ما مرّ يضعنا أمام مسؤولية علمية تقتضي التوصية والتوجيه والحث على جملة أمور:

١- تشكيل لجان مشتركة من أقسام التاريخ الإسلامي والأقسام والكليات العلمية بمتابعة المواقف والصور التي عكسها الرسول (ﷺ) ذات المفهوم المتوافق والمتميز عن علوم العصر بما يجمع العلوم الإنسانية والصرفة.

---

(١) النجم/١-٩.

(٢) ينظر ابن أبي شيبة، المصنف ٤٢٥/٧.

٢- حث الجامعات على تقديم رؤى مستقبلية للأحداث والوقائع بالاعتماد على الصور الخفية التي تعكسها الحوادث قيد الدراسة مثل الإسراء والمعراج.

٣- توجيه وحث الأقسام العلمية الصرفة بالاستشهاد -على الأقل- بصور علمية للرسول (ﷺ) بنفس الكيفية التي يتم الاستشهاد بها بأناس ليس لهم من الأمر إلا أنهم من الغرب، على الرغم من السبق الزمني.

٤- توجيه وحث أرباب العلوم الصرفة بطلب المؤلفات الإنسانية التي تحوي هذه المواقف العلمية للتحقق منها.

٥- المساعدة والدعم المادي والمعنوي لطباعة المؤلفات التي تصدر من الباحثين بهذا الخصوص، وهو الأمر الذي يشكل عائقاً كبيراً في إنجاز الجامعات نفسها فضلاً عن الباحث.

٦- الدعوة لعقد مؤتمر علمي دولي باسم الجامعة يتناول الإيحاءات العلمية الخفية في الحوادث التي ذكرتها المصادر عن رسول الله (عليه وآله وسلم) على غرار المؤتمرات الغربية التي عُقدت للغرض نفسه.

الفصل السادس

تنمية السنن التاريخية للمعايير القيمية في بناء الاستراتيجيات

من الأخطاء الشائعة التي سادت حتى في الأوساط الأكاديمية أنَّ العلوم الإنسانية بمجالها ومعاييرها القيمية لا تتضمن جنبةً تطبيقيةً على الإطلاق، وأنَّ هذه الصفة والحيز إنما هي محصورة في العلوم الصرفة ذات القوانين الثابتة التي لا يمكن تغييرها، وأي علم لا يملك هذه الصفة مع صفة الشمولية الزمنية هو من العلوم النظرية البحتة، دون النظر إلى الأمر بنسبية ودون حساب للمفاهيم والمعايير القيمية.

وعليه؛ فإنه يجب النظر إلى مجموعة من الأمور بهذا الصدد، والتي يمكن إجمالها بما يأتي:

الأمر الأول: وجود خطأ شائع باقتصار المفهوم التطبيقي على العلوم الصرفة دون العلوم الإنسانية.

الأمر الثاني: التعامل السلبي مع علم التاريخ على أنه علم آني لا يمكن الركون إليه في البناء المرحلي.

الأمر الثالث: عدم التعامل مع الثقافة القرآنية على وفق القواعد العلمية التطبيقية، وإنما التعامل على أساس تراكمات خارجية تقليدية.

الأمر الرابع: من أبرز مصاديق هذا الظلم في التعامل مع العلوم ومع المفاهيم الموسوعية هو "نهج البلاغة" الذي وُضع في خانة الموضوعات العقائدية، أو ما يسمى خطأً "العلوم الدينية"؛ فقد حُرم أرباب التاريخ والسنن التاريخية من هذا السِفر نتيجة هذا العزل. وهنا نحاول الربط بين السنن التاريخية بثباتها التطبيقي لترسيخ المفاهيم القيمية، وبين العينة

الأبرز التي وظفت هذه السنن وهو كتاب "نهج البلاغة"، الذي سيعيننا في بيان إستراتيجية الترسيخ القيمي، والتي هي إستراتيجية سننية مثلها الإمام علي -عليه السلام- في نهج البلاغة خير تمثيل، بل حدد معاييرها وشخص طريقها وأكد شرائطها.

إن المتتبع لمنهجية القرآن الكريم يجد أن الجانب التثقيفي التعليمي يكاد يكون العنصر الأبرز والأوضح في طروحاته، وبشكل بنائي قائم على الثباتية والشمول؛ ومن هنا فقد جسد القرآن الكريم ذلك الثبات في القوانين وذلك الاطراد فيها ليثقف الناس إلى نوع آخر من العلوم ذات الجانب التطبيقي، وهي العلوم الاجتماعية التي جعلت من الإنسان محوراً لحركتها؛ فقد صور السنن التاريخية -وهي القوانين التاريخية- بحكم القوانين الصرفة، وساق القصص والأمثلة التي تتكرر أفكارها بتكرر أسباب جريانها ومن ثم تكرار النتائج، وهو ما نسميه الجانب التطبيقي.

والمعلوم أن الإمام علي -عليه السلام- في نهج البلاغة ميز هذه السنن وربطها بقواعدها، وبين أسباب جريانها ووثق الجانب التطبيقي فيها، بل إن نهج البلاغة ترجمة فعلية للأثر الإيجابي في تشكيل هذه القواعد وإخراجها إلى حيز الوجود بصورة علمية منطقية تجمع بين القاعدة الثابتة ومعطياتها المستقبلية، وبالاستناد إلى المظاهر التي عرضها القرآن الكريم على ضابطة ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾؛ أي التأكيد على الثبات في

العلوم الإنسانية، والذي لا يتبناه الكثير من الناس خلافاً لما ثبته القرآن الكريم وترجمه الإمام علي -عليه السلام- في نهج البلاغة.

لم يقتصر الإمام علي -عليه السلام- في نهج البلاغة على حيثية واحدة من السنن التاريخية، بل ساق أنواع هذه السنن ومجالات كل منها، وبين الشرائط والضوابط التي تحكمها، ومن ثم ركز الآثار وحدد معطياتها.

إن استقراء هذه المفاهيم التي ذكرها الإمام -عليه السلام- في نهج البلاغة يبين ذلك المرتكز القرآني الرصين والمتطابق؛ فقد حرص الإمام -عليه السلام- على توظيف القواعد القرآنية بأمثلة من الآيات ليؤسس إلى ابتكار فكري عملي لما أسسه القرآن الكريم مسبقاً في عقول المتفكرين دون غيرهم؛ فمجال التقصير من الآخرين هو السبب الوحيد لطمس فكرة الجانب التطبيقي في العلوم الإنسانية وعلم التاريخ بالذات.

المبحث الأول
ملامح السنن ومداها التطبيقي

إنَّ السُّنة الربانية بحسب المعنى والشرائط السالفة هي قانون تطبيقي وقاعدة ترتكز عليها حيثيات البناء الإنساني والقيمي بمستوياته الفكرية المتعددة، ومن هنا جاءت التعريفات الاصطلاحية لتأخذ هذا المنحى، حتى قيل إنَّ السنن: (هي النظام الذي جرى عليه أمر الأمم، وإنَّ ما يقع للناس في كل زمان ومكان من الوجود في شؤون اجتماعاتهم وحياتهم مطبق لتلك السنن التي لا تتحول ولا تتبدل).[1]

والسنن بهذا المعنى تتناغم في جريانها مع فعل الإنسان نفسه؛ فهي قائمة بشرطيتها على هذا الفعل الذي تترتب عليه الآثار الاستحقاقية بالسلب والإيجاب، غير أنَّ المهم في هذه الآثار أنها حاصلة لا محالة على وفق ثبات القاعدة واطرادها، وهذا الحصول والوصول هو الجزء التطبيقي من الحدث أو النتيجة الإجمالية له.

لقد ثقف القرآن الكريم للسنن وبيّن ثباتها وشرائط جريانها واطرادها وشموليتها، وكذلك الآثار الاستراتيجية المترتبة عليها وباختلاف معانيها؛ إذ

(١) محمد رضا رشيد، تفسير المنار، ١٤١/١.

انطلق القرآن الكريم من المعنى العام للسنة وبشكل مرحلي إلى المعنى التطبيقي الخاص بآيات متعددة.[1]

وباستقراء هذه الآيات الكريمات، يمكن الربط بين الخصائص والصفات التي ترتكز عليها السنن التاريخية الربانية المرسخة للمفاهيم القيمية في البناء الاستراتيجي، وكذلك عينة هذا الترسيخ، ونقصد "نهج البلاغة"؛ ولعل أهم ما مرّ ذكره عن السنن هو الثبات، والاطراد، فضلاً عن الربانية والرعاية الإلهية.

وما سبق من آيات في الصفحات السابقة يؤكد ارتباط هذه السنن بالباري عز وجل؛ لذا نجد (سنة الله) الواردة في القرآن الكريم هي دلالة لفظية وفكرية على تلك الربانية، مثل قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾[2]، وهذا الترابط -كما أوضح السيد محمد باقر الصدر- يشير إلى إرادة الله وحكمته؛ لأن الله يمارس قدرته من خلال تلك السنن، فهي إرادة الله وهي ممثلة لحكمته وتدبيره في الكون.[3]

(١) آل عمران/١٣٧، النساء/٢٦، الأحزاب/٣٨ و٦٢، الإسراء/٧٧، الأنفال/٣٨، الحجر/١٣، الكهف/٥٥، فاطر/٤٣، غافر/٨٥، الفتح/٢٣.

(٢) الفتح/٢٣.

(٣) الصدر، السنن التاريخية في القرآن الكريم، ص٧٠.

المبحث الثاني: معايير نهج البلاغة القيمية في تأصيل الاستراتيجيات التي تحكمها السنن

تعامل الإمام علي -عليه السلام- في "نهج البلاغة" مع مصطلح السنة بما يلائم التنوع الحاصل فيه حتى الوصول للتأصيل الفكري، وبيان أبعاد المصطلح التطبيقية القائمة على الثباتية والشمول؛ إذ يمكن دراسة هذا التنوع وبشكل مرحلي بحسب الأفكار التي جسدها نهج البلاغة وكما سيأتي:

المرحلة الأولى: التي عالجت مصطلح السنة هي المرحلة التي تعاملت مع الأعراف المستحدثة والموروثة بجانبيها الإيجابي والسلبي، أي التي صنعها الإنسان؛ وقد ثقف الإمام -عليه السلام- إلى تنمية الصالح منها، وترتيب الأثر عليه دون أن يستحدث ما يتنافى مع ذلك الصلاح، وقد تجلى هذا الفهم في وصية الإمام -عليه السلام- إلى أحد أصحابه حينما ولاه أمر إحدى الولايات إذ قال عليه السلام: (وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ، وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا).[1] ويقصد بالسنة هنا ما يتعلق بالجانب العرفي.[2]

(١) نهج البلاغة، ص٤٣١.

(٢) مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٦٢/٤.

وهذه السنن تُعد من العادات الاجتماعية والعرفية دون إسنادها إلى الله عز وجل والشارع المقدس؛ فإذا كانت مثل إكرام اليتامى ومساعدة المحرومين فهي سنة حسنة ومحبذة، وإذا كانت على خلاف ذلك فهي سيئة وغير صالحة مثل عادة وأد البنات في الجاهلية.[١]

على أنَّ السنة الصالحة التي أُشير إليها قد تمثل المرحلة الثانية في تأصيل مصطلحها، والتي تعني قول وفعل الرسول -صلى الله عليه وآله- وتقريره، وهو الأمر الذي يمكن استنتاجه من المثال السالف؛ فالسنة التي ثقف الإمام -عليه السلام- لتنميتها قد تكون سنة الرسول -صلى الله عليه وآله- أو سنة المعصوم عموماً.[٢]

أما المرحلة التي جرى فيها التأصيل الفكري للحيز التطبيقي للسنن، فهي حينما ربط الإمام -عليه السلام- تلك السنن بالله تعالى وبشكل يخصصها بالثبات والشمول، ومن ثم إحداثها للتغيير المستقبلي الاطرادي؛ إذ قال عليه السلام: (فَاللَّهَ اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنٍ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرَنٍ).[٣] ووصف ابن ميثم البحراني هذا التأصيل الفكري بأن معناه: على طريقة واحدة لا يختلف حكمها؛ فكما كان من شأنها أن

(١) ناصر مكارم شيرازي، نفحات الولاية، ٣٥٠/١٠.

(٢) الراوندي، منهاج البراعة، ٣٥٤/٢؛ مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٢٧١/٣.

(٣) نهج البلاغة، ص٢٨١.

أهلكت القرون الماضية وفعلت بهم وبآثارهم ما فعلت وصيرتهم إلى الأحوال التي حصلت، فكذلك فعلها بكم.[١]

وقد جسّد الإمام -عليه السلام- هذا التأصيل والتوثيق والبناء التطبيقي للسنن بوصيته للإمام الحسن -عليه السلام- في كيفية توظيفها لإحداث الجريان ومن ثم تحقيق النتائج المرادة، إذ قال عليه السلام: (أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ[٢]، وَتَوَخَّيْتُ[٣] لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ).[٤]

أشار الإمام -عليه السلام- في هذه الوصية إلى المبدأ الحركي والجانب التطبيقي في تحقيق جريان السنة التاريخية، وبذلك الجريان تتحقق فلسفة الثبات والاطراد، وتعرف الصوالح من الطوالح، وتفرز المنافع من الأضرار، وتستخلص الأفكار الفعالة.[٥]

---

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٠٧/٤. وينظر: المجلسي، بحار الأنوار، ٢٠٧/٧؛ حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة، ١٩٦/١١.

(٢) نخيلة: التصفية والاختيار. ينظر: الفراهيدي، العين ٢٦٤/٤؛ الزمخشري، أساس البلاغة، ٩٤٤.

(٣) توخيت: تحريت واجتهدت. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٢٨٢/١٥.

(٤) نهج البلاغة، ص٢٩٧.

(٥) حميد سراج جابر، فلسفة التاريخ في فكر الإمام علي، ص٤٦.

التنمية القيمية للمفهوم التطبيقي في جريان السنن التاريخية

أولاً: شرائط السنن التطبيقية ومحدداتها

إنَّ جريان السنن بشكلها التطبيقي بالنظر لثباتيتها يستدعي وجود الشرائط والمحددات التي تعد المقدمات التطبيقية لهذا الجريان، وبهذه الشرائط ينتفي الزمان والمكان؛ فحين تحققها تجري السنن ويكون التطبيق العملي الحتمي لها. ولعل أوضح هذه الشرائط والمحددات التي ذكرها الإمام علي -عليه السلام- وثقف لها لينمي الجانب التطبيقي للسنن هي محدد وشرط التقوى؛ وقد عدها الإمام -عليه السلام- ضابطة لتحقيق التطبيق الفعلي للسنن وتحقيق النتائج وترتيب الآثار حينما قال: (وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)[1] مِنَ الْفِتَنِ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ، وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ، ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ).[2]

عَبّر الإمام -عليه السلام- عن العنصر التطبيقي للسنن بجريانها وفق هذه الضابطة؛ إذ أكد عليها عن طريق الاستشهاد بالآية القرآنية التي قيل في تفسيرها: إنَّ الله تعالى يجعل له مخرجاً من الشدة إلى الرخاء، ومن الحرام

(١) الطلاق/٢.

(٢) نهج البلاغة، ص٢٦٦.

إلى الحلال، ومن النار إلى الجنة؛ فمن صبر واتقى جعل الله له مخرجاً من الضيق[١]. وأيضاً الفسحة والخير بعد الضيق والشر، وضمان الكرامة الإنسانية بعد الخلاص من ظلم الجهل بأنوار العلوم الحاصلة عن الاستعداد بالتقوى[٢]، بل والعاقبة الأخروية الحتمية التي هي نتيجة وأثر[٣]؛ أي بمعنى أنَّ الأمر يمثل سبباً ونتيجة، ولا يمكن أن تكون النتيجة من توافر هذا الشرط هي غير النتيجة الحتمية التي وعد بها الله تعالى، وهي المخرج من الضيق بتفاصيله المتنوعة، سواء ما يتعلق منها بالفتن أو غير ذلك.

ويمكن القول إنَّ القرآن الكريم ترجم هذا الشرط بمناسبة أخرى حينما ربط بين التقوى واستنزال الأرزاق والبركات أيضاً، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[٤]؛ أي بمعنى وجود التناغم بين الشرط والأثر الناتج، فحينما يتوافر الشرط أو المحدد تنزل البركات والأرزاق.[٥]

---

(١) الواحدي، تفسير الواحدي، ١١٠٧/٢. وينظر: الكاشاني، زبدة التفاسير، ٨٨/٧.

(٢) ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة، ٤٠٤/٣.

(٣) كيذري بيهقي، حدائق الحقائق، ١٢٤/٢. وينظر: حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة، ٣٩٠/١٠.

(٤) الأعراف/٩٦.

(٥) الرازي، تفسير الرازي ج٣ ص١٣٧. وينظر القرطبي، تفسير القرطبي ج٦ ص٢٤١.

ولعل أوضح قرينة يستدعيها الإمام علي -عليه السلام- في إثبات تلك الشرطية للتقوى وأثرها الحتمي في الجريان هي ربطه -عليه السلام- بين العبرة من التجربة التي وعاها التاريخ لأقوام أخرى ومحدد التقوى الذي مثل الحاجز والمانع في حصول المحذور وارتكاب أخطاء التاريخ نفسه التي أدت إلى العقوبات آنذاك؛ وهنا يصرح الإمام -عليه السلام- بالحتمية التطبيقية بتوافر الشرط إذ يقول عليه السلام: (ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ[1]، إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلَاتِ[2] حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ).[3]

يرى بعض الشراح أنه عندما يعرف الإنسان الحقائق عن طريق العبرة، ويرى الأمور باطلة والأطلال زائلة، عندئذ يفيض الله على قلبه التقوى والخشية ويرفع التقوى شعاراً له، ويمتنع عن أن يلقي نفسه في تلك الشبهات الباطلة لإشراق نور الحق الواضح على لوح نفسه بالاعتبار؛ إذ جاء كلام الإمام -عليه السلام- في صورة شرطية متصلة.[4]

ومن أهم المحددات الأخرى التي يترتب عليها جريان السنن وتطبيقها الحتمي (الصبر)، والذي جسد القرآن الكريم أثره في الحتمية التطبيقية

---

(١) يوسف/٧٢. وزعيم أي كفيل. ينظر الطباطبائي، تفسير الميزان ٢٢٣/١١.

(٢) المثلات: العقوبات. ينظر الرازي، مختار الصحاح، ص٣١٥.

(٣) نهج البلاغة، ص٥٧.

(٤) ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة، ٢٩٩/١، شارح من أعلام القرن الثامن، شرح نهج البلاغة، ص١٨٤.

للسنن التاريخية وتكرار القاعدة والقانون على الأقوام من باب العدالة الإلهية، إذ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1]؛ وقد ركّز الفخر الرازي هذا الفهم وتبناه بشكله الحرفي حينما رأى أنَّ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾[2] يدل على أنَّ إتيان ذلك متوقع منتظر[3]، والذي فسرته الآية القرآنية الأخرى بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾[4]؛ ويرى المفسرون أنَّ محدد الصبر هنا هو مقدمة للتوطين والثبات حتى يتحقق النصر.[5]

وهو عين الأمر الذي أشار له الإمام علي حينما قال عليه السلام: (لَا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ، وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَانُ)[6]؛ أي بمعنى انتفاء الزمان والمكان في في هذا المقام طالما أنَّ القاعدة الشرطية تحقق الحتمية التطبيقية ويتحقق المراد.[7]

---

(١) البقرة/٢١٤.

(٢) البقرة/٢١٤.

(٣) تفسير الرازي ج٦ ص٢٠.

(٤) البقرة/١٠٣.

(٥) الطوسي، التبيان، ٣٣/٢، ابن الجوزي، زاد المسير، ١٤٦/١.

(٦) نهج البلاغة، ص٤٩٩.

(٧) حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة، ٢٣٧/٢١؛ الحسيني الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ٣٤٥/٤.

بل إنَّ الإمام -عليه السلام- أكد هذا التطبيق والآثار المترتبة في مناسبة أخرى حينما قال: (وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ)؛[١] أي اجعلوه شعاركم حتى تجري السنة ويتحقق الظفر والنصر.[٢]

والأهم من ذلك كله أنَّ الإمام دائماً ما يربط بين هذه الضوابط وصداها في القرآن الكريم ليؤكد تلك الحتمية التطبيقية؛ لذلك ربط -عليه السلام- بين الاستغفار بوصفه محدداً من محددات الجريان وبين آيات القرآن الكريم إذ قال عليه السلام: (وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الِاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً)،[٣] فَرَحِمَ اللَّه امْرَأً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ).[٤]

استدل الإمام -عليه السلام- لإثبات تلك الحتمية بما حدث مع نبي الله نوح -عليه السلام- إذ أمر قومه بالاستغفار وقدم إليهم الموعد بما هو واقع في نفوسهم، وأحب إليهم من الأمور الآجلة؛ فمناهم الفوائد العاجلة ترغيباً في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها[٥]؛ لأنَّ الاستغفار والتوكل على الله

---

(١) نهج البلاغة، ص٦٨.

(٢) البحراني، شرح نهج البلاغة، ٢٨/٢. وينظر: حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة، ٣٧٦/٣؛ الحسيني الشيرازي، توضيح نهج البلاغة، ١٤٧/١.

(٣) نوح/١٢.

(٤) نهج البلاغة، ص١٩٩.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧٨/٨/٩.

مفتاح التوفيق إلى العمل، ويُدر الرزق الذي يحتاج إلى كد وعرق وعمل.[١]
وقد ربط الإمام -عليه السلام- بين هذا المحدد والضابطة وبين التوفيق واستحصال الفوائد الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك؛ لأنَّ الله تعالى عادل ويفي بوعده، ومن هنا جاء وعد نوح -عليه السلام- لقومه وهو وعد حتمي لأنه مؤمن بجريان السنة وتطبيقها بتوافر هذا الشرط.
ولا تكن الطاعة بحيثياتها كافة ببعيدة عن الشرطية في جريان السنة التاريخية، وهي الضابطة التي صورها القرآن الكريم بوصفها مقدمة لاستحصال الخير كله بقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾[٢]؛ وهذه الاستقامة بطاعة الباري عز وجل هي الضابطة التي ستحقق النماء والخير والبركة،[٣] لذلك نجد الإمام -عليه السلام- يشير إلى هذا المعنى بالقول: (وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ).[٤]
ومن الضوابط والمحددات التي ثقّف لها القرآن الكريم بهذا الشأن، ضابطة ومحدد إصلاح النفس والذات والتي هي باعثة على جريان السنة التاريخية بتغيير الوضع بجوانبه المختلفة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.[٥] فالتغيير هو تغيير داخلي مما يستلزم

---

(١) مغنية، شرح نهج البلاغة، ٣١٧/٢.
(٢) الجن/١٦.
(٣) الرازي، تفسير الرازي ج٣٠ ص١٦٠.
(٤) نهج البلاغة، ص١٨٨.
(٥)الرعد/١١.

جريان وتطبيق السنة وفق هذه القاعدة الثابتة ومن ثم استحصال المكاسب.[١]

ومن هنا عَبّر الإمام علي -عليه السلام- عن هذه الضابطة بقوله: (مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ)[٢]؛ أي إنَّ من يهتم بنفسه وداخله وإصلاحها أولاً يديم الله تعالى عليه التوفيق والسداد والحفظ وتحقيق المقاصد وإصلاح محيطه.[٣]

وقد كرر الإمام -عليه السلام- ذلك المفهوم التطبيقي في مناسبة أخرى حينما قال: (مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللَّهُ عَلَانِيَتَهُ، وَمَنْ عَمِلَ لِدِينِهِ كَفَاهُ اللَّهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَحْسَنَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ).[٤]

ومن هنا يظهر أنَّ الجريان يترك النتائج الآتية:

١- الهيبة والوقار والجاه عند المصلح لنفسه.

٢- العاقبة في الدنيا والآخرة وإصلاح حاله بالمستويات كافة.

٣- نظرة الآخرين وتقديرهم وأخذ الاستحقاق المعنوي والمادي منهم.

---

(١)الرازي، تفسير الرازي ج١٥ ص١٨١.
(٢)نهج البلاغة، ص٥٥٢.
(٣)الموسوي، شرح نهج البلاغة، ٢٨٦/٢.
(٤)نهج البلاغة، ص٥٥٢.

ثانياً: ميدان السنن التاريخية التطبيقي

للسنن التاريخية ميدان رحب تجري فيه حتمياً بناءً على المقدمات التي ذكرناها، وهذا الميدان متنوع بتنوع السنن نفسها؛ إذ يمكن دراسة هذا الميدان التطبيقي كما يأتي:

أولاً: سنّة الابتلاء: وهي سنّة الله في خلقه، تجري على الأمم والأفراد في كل زمان ومكان؛ لأنها قانون إلهي أجراه الله على خلقه فتكون أعمالهم ومصالحهم في محل الامتحان[١]، والاختبارات متنوعة ومتعددة ومختلفة في مقاماتها[٢]، وهي ذات مغزى وقصدية عكسها قول الباري عز وجل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.[٣]

وعلى ذلك سار الإمام -عليه السلام- في بيان هذه السنة وميدانها التطبيقي بقوله: (دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا، أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، وَالْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ)[٤] ؛ والإشارة هنا صريحة بالإحاطة لهذا الميدان، بل وبالشمولية والاطراد مع تعدد صور البلاء وأشكاله.[٥]

---

(١) مكتبة الروضة الحيدرية، الابتلاء والاختبار في نهج البلاغة، ص٥.

(٢) الشيخ محمد اليعقوبي، الأسوة الحسنة، ص١٣٥.

(٣) هود/٧.

(٤) نهج البلاغة، ص٣٩٤.

(٥) الراوندي، منهاج البراعة، ٣٩٩/٢. وينظر: حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة، ٣٢٤/١٤.

وفلسفة هذا الابتلاء هي الوصول بالإنسان إلى التوبة؛ إذ ذكر الإمام -عليه السلام- في مناسبة أخرى: (إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ؛ لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ)[1]. كذلك فإنَّ الابتلاء عند الإمام علي -عليه السلام- يمثل معياراً للتمايز بين الناس في استحصال الثواب إذ قال عليه السلام: (إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا، وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)[2] ؛ وذلك ترجمة وتعبيراً ومصداقاً لقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3]؛ أي تمييز المحسنين منكم من المسيئين وبصيغة استفهام.[4]

هذا فضلاً عن هدف منع التكبر حتى يشعر الإنسان بقدره وقيمته أمام الله تعالى إذ قال عليه السلام: (وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ تَمْيِيزاً بِالِاخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفْياً لِلِاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً

(١) نهج البلاغة، ص١٩٩.

(٢) نهج البلاغة، ص٤٤٦.

(٣) هود/٧.

(٤) الطباطبائي، الميزان، ١٥/١٥١.

لِلْخُيَلَاءِ[1] مِنْهُمْ)[2]. لأنَّ أداء الحق من فرائض وغيرها هو تذلل واعتراف بوجود الخالق وصغر المخلوق أمامه.[3]

وقد بيّن الإمام -عليه السلام- الحتمية التطبيقية والآثار المترتبة عليها، والتي وصفها -عليه السلام- بعاقبة هذا الجريان بعد توافر شرائطه ومن ثم ميدانه؛ إذ قال عليه السلام: (وَإِنِ ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)[4] ؛ أي إنَّ جريان السنة بضابطة الصبر يرفع هذا البلاء؛ لأنَّ هذا الرفع هو استحقاق بعد جد واجتهاد، مصداقاً للآية الكريمة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.[5]

ثانياً: سنّة التمكين والنصر: وهي سنّة تعني القدرة والاستمكان والانتصار على الغير[6]، وهي تمثل الأثر بأجلى صوره والتطبيق العملي للجريان الذي يحدث بناءً على المحددات التي سلف ذكرها، وقد تمثلت في القرآن الكريم

---

(١) الخيلاء: التكبر. ينظر: ابن سيدة، المخصص، ٦٧/٥.

(٢) نهج البلاغة، ص٢٨٧.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣٣/١٣.

(٤) نهج البلاغة، ١٤٤.

(٥) البقرة/١٥٥.

(٦) الزمخشري، أساس البلاغة، ص٩١٠.

بقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.[1]

ولعل المصداق الأوضح والتطبيق الأبرز للحتمية التاريخية هو تمكين أهل البيت -عليهم السلام- بعد سلسلة ظلمهم والعداء لهم، ومن صور هذا التمكين والنصر ظهور قائمهم -عليه السلام- إذ قال الإمام علي -عليه السلام-: (لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ عَلَى وَلَدِهَا)، وتلا عقيب ذلك: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.[2] والضروس هي الناقة السيئة الخلق تعض حالبها ليبقى لبنها لولدها، وذلك لفرط شفقتها عليه؛ واستعار الإمام -عليه السلام- لفظة الشماس للدنيا باعتبار إعدادها للمنعة، وشبهها بالفرس الذي يمنع ظهره أن يُركب، وشبه عطفها بعد ذلك عليهم وإعدادها لتمكنهم من الحكم فيها بعطف الضروس على ولدها، ووجه الشبه شدة العطف.[3]

وقد فسر الطوسي الآية التي استشهد بها الإمام علي -عليه السلام- بأنها نزلت في شأن الإمام المهدي -عليه السلام-، وأنَّ الله تعالى يمن عليه بعد أن

---

(١) القصص/٥.

(٢) القصص/٥.

(٣) ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة، ٣٤٩/٥.

استضعف ويجعله إماماً ممكناً، ويورثه ما كان في أيدي الظلمة.[1] وهذا يتناغم مع صورة التمكين والنصر التي أراد الإمام علي -عليه السلام- إعمامها سواء بالتفسير الخاص بشأن أهل البيت -عليهم السلام- كما هو الواضح من مقصد الإمام -عليه السلام-، أو التفسير العام لكل المستضعفين وفي الأزمان المتعاقبة.

وثق الإمام -عليه السلام- فكرة وراثة أئمة أهل البيت -عليهم السلام- بنص آخر أكد جريان السنة والعاقبة والتمكين فيها حينما قال: (وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ)؛[2] أي إنَّ التمكين والنصر هو وعد إلهي جارٍ ومتحقق لا محالة بتحقق السنن. والملاحظ أنَّ الإمام -عليه السلام- وصل في كلمه إلى درجة التشخيص لنوع التمكين وهو ظهور الإمام المنتظر -عجل الله فرجه-، أي الإيمان المطلق بتلك الحتمية وذلك الميدان التطبيقي.

لقد رتب الإمام -عليه السلام- المراحل وبنى الآليات والشرائط التي تمهد الطريق لميدان السنن حتى تأخذ حيز التطبيق الفعلي للوصول إلى نتيجة النصر والتمكين، إذ كان يوصي المتصدين قائلاً: (مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ، وَأَكْمِلُوا اللَّأْمَةَ، وَقَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ

(١) التبيان ١٢٩/٨.

(٢) نهج البلاغة، ص٢٠٤.

سَلِّهَا، وَالْحَظُوا الْخَزْرَ، وَاطْعُنُوا الشَّزْرَ، وَنَافِحُوا بِالظُّبَى، وَصِلُوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللَّهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ؛ فَعَاوِدُوا الْكَرَّ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ، فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الْأَعْقَابِ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ، وَطِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفساً، وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً، وَعَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ، وَالرِّوَاقِ الْمُطَنَّبِ، فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ، وَقَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً، وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلًا؛ فَصَمْداً صَمْداً، حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ (وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ).[1] وعند استقراء هذه التوصيات والنظر فيها بعمق نجد أنها إجراءات هادفة إلى شدة التحصّن[2]، وضمان إيجاد ما يتقوى به على حرب العدو[3]، واتباع ما اجتمع عليه العدد الكثير من العدو[4] حتى لا يتشتت الجهد، هذا فضلاً عن جعل خشية الله هي الشعار.[5]

وقد ختم الإمام -عليه السلام- بذكر الحسم والأثر من هذه الإجراءات والشرائط وهو النصر والتمكين حينما قال عليه السلام: (فَصَمْداً صَمْداً

---

(١) نهج البلاغة، ص٩٧.

(٢) البحراني، شرح نهج البلاغة، ١٨٠/٢. وينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦٩/٥.

(٣) الرازي، تفسير الرازي، ١٨٥/١٥.

(٤) البيهقي، معارج نهج البلاغة، ٣٤٩. وينظر: الكيذري البيهقي، حدائق الحقائق، ٣٣٨/١.

(٥) الراوندي، منهاج البراعة، ٢٩٠/١. وينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦٨/٥؛ البحراني، شرح نهج البلاغة، ١٧٩/٢؛ حبيب الله الخوئي، منهاج البراعة، ٢٥/٥.

حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ).[١] بل نجد أنَّ الإمام -عليه السلام- ترجم هذا الثبات الوارد في كلامه وطلب من المقاتلين أن يجعلوه شعاراً لهم إذ قال في مناسبة أخرى: (وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ).[٢]

ثالثاً: سنة الاستدراج: وهي سنة إلهية تستهدف المصرين على الخطيئة غير الميالين للتوبة والعودة إلى الله تعالى،[٣] إذ قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[٤]

وتسمى سنة الاستدراج سنة الإملاء أيضاً لقول الباري عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٥]؛ بمعنى أنه لا يظنن الذين كفروا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله أنَّ إملاءنا لهم[٦] خير لأنفسهم، إنما نؤخر آجالهم فنطيلها ليزدادوا إثماً، يكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم وتكثر، ولهؤلاء الذين كفروا بالله ورسوله في الآخرة عقوبة لهم مهينة مذلة.[٧]

---

(١) نهج البلاغة، ص٩٧.

(٢) نهج البلاغة، ٦٨.

(٣) أيوب، الانحرافات الكبرى، ص١١٣.

(٤) القلم/٤٤. ينظر الكليني، الكافي، ٤٥٢/٢؛ المجلسي، روضة المتقين، ص٥٢؛ الفيض الكاشاني، الوافي، ١٠٤٣/٥.

(٥) آل عمران/١٧٨.

(٦) الطبري، جامع البيان ج٤ ص٢٤٦.

(٧) الطبري، جامع البيان ج٤ ص٢٤٨.

أشار الإمام علي -عليه السلام- إلى ذلك الإملاء والاستدراج في كلامه الذي بيّن فيه جريان السنة وصورة المستدرجين إذ شخصها حينما قال عليه السلام: (كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ؛ وَمَا ابْتَلَى اللَّهُ أَحَداً بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ).[1] وقد بنى الإمام -عليه السلام- هذا الاستدراج على حيثيات مثلت الابتلاء بالإملاء؛ وأول هذه الحيثيات هي الإحسان إليه، وثانيها الستر عليه على الرغم من أفعاله، وثالثها حسن القول فيه؛ وقد سببت هذه الحيثيات الاستدراج والغرور والافتتان حتى ابتُلي بالإملاء وما ارتدع عن غيه.

وربما نجد أنَّ القرآن الكريم يفسر طبيعة الإملاء بقوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾؛[2] أي أغراهم بالإمهال والإملاء وعدم التعجيل بالعقوبة على الذنوب (وأملي لهم) الذي هو رحمة وشفقة وإعطاء المزيد من الفرص للتوبة وليس عجزاً أو ضعفاً؛ لأنَّ الاستعجال ديدن من يخاف من الفوت فيتوهمون أنهم على خير ولم يصدر معهم شيء سيئ وأنهم يستحقون من الله تعالى أغداق النعم،[3] وهذا ما أكده الإمام علي -عليه السلام- في

(١) نهج البلاغة، ص٤٨٩.

(٢) الأعراف/١٨٣.

(٣) الشيخ محمد اليعقوبي، سنة الاستدراج، ص٣.

مناسبة أخرى عندما قال: (يَا ابْنَ آدَمَ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ).[١]

رابعاً: سنّة التدافع: وهي سنّة إلهية تقوم عند جريانها على دفع الشر بالخير أو دفع المفاسد عموماً، ولا يمكن أن تخلو حياة فرد أو أمة من الأمم من لون من ألوان التدافع؛ لأنه الطريق إلى دفع الفساد عن الأرض[٢]؛ وقد ذكرت في آيات القرآن بصيغتين متشابهتين، أولهما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٣]، والثانية قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.[٤]

وقد خص بعض المفسرين الآيات بتفسيرها عسكرياً، أي لولا دفع الله بجنود المسلمين وسراياهم ومرابطيهم لغلب المشركون على الأرض فقتلوا المؤمنين وخرّبوا البلاد والمساجد[٥]؛ فيما رأى آخرون أن يدفع الله بالبَرّ عن

---

(١) نهج البلاغة، ص٤٧٢.

(٢) حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن، ص٢٢٦.

(٣) البقرة/٢٥١.

(٤) الحج/٤٠.

(٥) الثعلبي، تفسير الثعلبي، ٢٢٤/٢؛ الواحدي، تفسير الواحدي، ١٨١/١. وينظر: الطبرسي، مجمع البيان، ١٥٢/٢.

الفاجر الهلاك[1]، أي ولولا دفع الله الناس بعضهم عن بعض لفسدت الأرض بهلاك أهلها.[2] وما نستفيده هو العمومية في الدفع، فسواء أخذنا بالجانب الأول الخاص بالعسكري أم بالجانب الثاني العام، فإنَّ الدفع هو بفئة محددة عن الفئات الأخرى، ونستطيع الجمع بين الأمرين أي أنه حتى مسألة الجهاد العسكري قد تكفل بها أناس معينون فهون ذلك على الآخرين إذ كان ذلك دفعاً لهم.

ولعل ما ورد عن الإمام -عليه السلام- في هذا الباب يحمل الإيحاء الذي يوصل الفكرة المراد إيصالها، لا سيما وأنه -عليه السلام- بدأ بالطرف الثاني المدفوع عنه حينما قال: (ازْجُرْ[3] الْمُسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ)[4] ؛ وما يراد إيصاله إنَّ التعامل مع الطرف المحسن صاحب الدفع هو كفيل بالدفع عن المسيء بعقوبته المعنوية أولاً، وبالتأثير عليه ثانياً؛ فهو إحسان للمحسن وتذكير للمسيء.[5]

---

(١) الطوسي، التبيان، ٣٠١/٢؛ الطبرسي، مجمع البيان، ١٥٢/٢؛ الكاشاني، التفسير الأصفى، ١١٩/١.

(٢) الطبري، جامع البيان، ٨٥٤/٢؛ النحاس، معاني القرآن، ٢٥٥/١.

(٣) الزجر: المنع والنهي والانتهار. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٣١٨/٤.

(٤) نهج البلاغة، ص٥٠١.

(٥) مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ٣٢٨/٤.

ومعلوم أنَّ هذا الدفع والجريان هو ميدان عملي تطبيقي للسنن؛ لذلك فسنة التدافع تتمحور في هذا الميدان التطبيقي بمحاورها العسكرية وغير العسكرية بل حتى المعنوية.[١]

خامساً: سنة التداول: والتداول هو انقلاب الزمان ودورانه والانتقال من حال إلى حال[٢]، وهي سنة قرآنية وردت بقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٣]؛ بمعنى أنها ترجع إلى مدى تحقيق المعايير؛ فعند تحقيقها كان النصر وكانت المداولة لصالح الإنسان المنتج والذي يعتمد عليه وعلى عمله ونيته في تحقيق هذا التداول[٤]؛ فالأيام على قديم الدهر لا تبقى للناس على حالة واحدة.[٥]

وقد ترجم الإمام -عليه السلام- ذلك الفهم بشكل دقيق وعبارات دالة وعميقة في كتابه إلى ابن عباس إذ قال: (وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ

---

(١) هادف مصطفى، فقه السنن الإلهية وأثرها في الدعوة الإسلامية، ١٢٠/٢.

(٢) الجوهري، الصحاح، ١٧٠٠/٤؛ ابن منظور، لسان العرب، ٢٥٢/١١؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ٣٧٧/٣.

(٣) آل عمران/١٤٠.

(٤) النحاس، معاني القرآن، ٤٨٢/١؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢١٨/٤. ينظر: السمعاني، تفسير السمعاني، ٣٦١/١.

(٥) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ٦٨/٣.

وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُوَلٍ)[1] ؛ أي أنه على الإنسان أن يراقب عن كثب ولا يكتفِ بالتفرج؛ فمن حيث العموم فالتغير مستمر والأحوال متداولة بين الخلق والأمور متعاقبة[2]، إذ يتضح أنَّ أحوال العالم لا تدوم على وتيرة واحدة وإنما هو تغيير وانتقال من حال إلى آخر، وهي وصية عامة لا تختص بإنسان دون آخر مع اختلاف المجالات؛ فصحيح إنَّ الحديث مع والٍ أو إداري إلا إنَّ التوصية عامة والمداولة في المجالات كلها، وهي ما تحتم العمل والحرص والإنتاج.

(١) نهج البلاغة، ص٤٦٢.

(٢) الحسيني، ديباج الوضي، ٥/١ ٢٧٠.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- **القرآن الكريم.**
- **ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله (ت ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار إحياء الكتب العربية، قم، ١٩٦٥م.**
- **الأصفهاني، الراغب، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٤٢٥هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوود، ط٢، طليعة النور، قم، ١٤٢٧هـ.**
- **البحراني، ابن ميثم، ميثم بن علي بن ميثم (ت ٦٩٩هـ)، شرح نهج البلاغة، ط١، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٣٦٣ش.**
- **البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر (ت ٦٨٣هـ)، تفسير البيضاوي، بيروت، (د.ت).**
- **البيهقي، أبو الحسن علي بن زيد (ت ٥٦٥هـ)، معارج نهج البلاغة، تحقيق: محمد تقي دانش، ط١، مكتبة المرعشي، قم، ١٤٠٩هـ.**

- الثعلبي، أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٤٢٧هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: محمد بن عاشور، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٢م.
- الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٣٧٠هـ)، أحكام القرآن، تحقيق: عبد السلام محمود شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ)، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م.
- الحسيني، يحيى بن حمزة (ت ٦٦٩هـ)، ديباج الوضي في شرح كلام الوصي، تحقيق: خالد بن قاسم المتوكل، ط١، مؤسسة الإمام زيد بن علي، النجف، ٢٠٠٠م.
- الحراني، ابن شعبة، محمد الحسن بن علي (ت ق ٤هـ)، تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط٢، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٤هـ.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ط٣، (د.م)، (د.ت).
- الرازي، محمد بن أبي بكر (ت ٧٢١هـ)، مختار الصحاح، تحقيق: أحمد شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.

- الراوندي، قطب الدين (ت ٥٧٤هـ)، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تحقيق: عبد اللطيف الكوهكمري، مكتبة المرعشي، قم، ١٤٠٦هـ.
- الزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ):
  ١. أساس البلاغة، دارومطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.
  ٢. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- ابن زمنين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٣٩٩هـ)، تفسير ابن زمنين، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، ط١، مطبعة الفاروق الحديثة، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي (ت ٩٥١هـ)، تفسير أبي السعود، (د.م)، (د.ت).
- السمرقندي، أبو الليث (ت ٣٨٣هـ)، تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
- شارح من أعلام القرن الثامن، شرح نهج البلاغة، تحقيق: عزيز الله عطاردي، ط١، مطبعة الهادي، قم، ١٣٧٥ش.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٥م.

- الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: خليل الميس، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٥م.
- الطوسي، محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب العاملي، ط١، مكتبة الإعلام الإسلامي، إيران، ١٤٠٢هـ.
- ابن عربي، محيي الدين (ت ٦٣٨هـ)، تفسير ابن عربي، ضبط: عبد الوارث محمد علي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ.
- علي بن أبي طالب (عليه السلام)، نهج البلاغة، ضبط: صبحي صالح، ط١، بيروت، ١٩٦٧م.
- العياشي، محمد بن مسعود (ت ٣٢٠هـ)، تفسير العياشي، تحقيق: هاشم الرسولي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، (د.ت).
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، (د.م)، (د.ت).
- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد عبد الحليم، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٣٠م.
- القمي، علي بن إبراهيم (ت ٣٢٩هـ)، تفسير القمي، تحقيق: السيد طيب الموسوي، دار الكتاب، قم، ١٤٠٤هـ.

- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ)، مفتاح دار السعادة، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن، دار عالم الفوائد، (د.ت).
- الكليني، محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ)، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط٣، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٧ش.
- الكيذري، محمد بن الحسين (ت ق ٨هـ)، حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، تحقيق: عزيز الله عطاردي، ط١، مطبعة اعتماد، قم، ١٤١٦هـ.
- الليثي الواسطي، علي بن محمد (ت ق ٦هـ)، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: حسين الحسيني، ط١، دار الحديث، قم، ١٣٧٦ش.
- المجلسي، محمد باقر (ت ١١١١هـ)، بحار الأنوار، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م.
- مقاتل بن سليمان، أبو الحسن (ت ١٥٠هـ)، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: أحمد فريد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ.
- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، أدب الحوزة، إيران، ١٤٠٥هـ.

- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد (ت ٣٣٨هـ)، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط١، جامعة أم القرى، السعودية، ١٩٨٩م.
- النسفي، عبد الله بن أحمد (ت ٧١٠هـ)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، بيروت، (د.ت).
- الواحدي، علي بن أحمد (ت ٤٦٨هـ)، تفسير الواحدي (الوسيط)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط١، دار القلم، بيروت، ١٤١٥هـ.

ثانياً: المراجع

- إبراهيم، محمد إسماعيل، القرآن وإعجازه العلمي، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
- إبراهيم، مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ط٤، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- جابر، حميد سراج:

١. الجودة وفلسفة إتقان العمل في فكر الإمام علي، ط١، دار تموز، دمشق، ٢٠١٢م.

٢. فلسفة التاريخ في فكر الإمام علي: دراسة في نهج البلاغة، دار الكفيل، كربلاء، ٢٠١٧م.

- الخوئي، حبيب الله الهاشمي (ت ١٣٢٤هـ)، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تحقيق: إبراهيم الميانجي، ط٤، دار الهجرة، قم، (د.ت).
- الحسيني الشيرازي، محمد، توضيح نهج البلاغة، دار التراث الشيعية، طهران، (د.ت).
- الحميد، حسن بن صالح، سنن الله من خلال آيات القرآن الكريم، ط١، دار الهدى النبوي، المنصورة، (د.ت).
- الحيدري، السيد أحمد هيثم، حقيقة البلاء وحتميته ودور الدنيا في بلاء الإنسان، ط١، مؤسسة علوم نهج البلاغة، كربلاء، ٢٠١٥م.
- رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ط٢، دار المنار، القاهرة، ١٩٤٧م.
- الزبيدي، مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- زكي، رمضان خميس، سنن الله في هلاك الأمم، ط١، القاهرة، ٢٠١٤م.
- زيدان، عبد الكريم، السنن الإلهية في الجماعات والأمم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.

- السيسي، محمد، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، جامعة قطر، (د.ت).
- السيلاوي، علي فالح، دور الثبات الاستراتيجي في تعزيز الأداء المنظمي، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد ٦٩، النجف، ٢٠١٦م.
- الصدر، محمد باقر، السنن التاريخية في القرآن الكريم، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠١١م.
- الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، (د.ت).
- عبده، محمد، شرح نهج البلاغة، ط٢، دار الفكر، بيروت، ٢٠١١م.
- عيساوي، عادل بن بوزيد، فقه السنن الإلهية، ط١، مركز البحوث والدراسات، قطر، ٢٠١٢م.
- القمي، عباس، شرح حكم نهج البلاغة، دار الأنصار، قم، (د.ت).
- مغنية، محمد جواد:

١. تفسير الكاشف، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.

٢. في ظلال نهج البلاغة، ط١، انتشارات كلمة الحق، ١٤٢٧هـ.

- مكارم شيرازي، ناصر:
  ١. التفسير الأمثل في كتاب الله المنزل، (د.م)، (د.ت).
  ٢. نفحات الولاية، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب، قم، ١٤٢٦هـ.
- مكتبة الروضة الحيدرية، الابتلاء والاختبار في نهج البلاغة، العتبة العلوية المقدسة، النجف، ٢٠١١م.
- الموسوي، عباس، شرح نهج البلاغة، ط١، دار الرسول الأكرم، بيروت، ١٩٩٨م.
- اليعقوبي، الشيخ محمد، الأسوة الحسنة، دار الصادقين، النجف، ٢٠١٤م.

ثالثاً: البحوث والدوريات

- **عاشور، مجدي، السنن الإلهية: مصادرها وضوابطها، مجلة المسلم المعاصر، العدد ١١١، لبنان، ٢٠٠٤م.**
- **كريم، عماد، وخضر إبراهيم، السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل، مجلة المنارة، العدد ٢، ٢٠٠٩م.**
- **كهوس، رشيد أبو اليسر، السنن الإلهية الكونية والاجتماعية، مجلة تدبر، العدد الأول، قطر، ٢٠١٦م.**
- **يوسف، يوسف إبراهيم، السنن الإلهية في الميدان الاقتصادي، كلية الشريعة والقانون، جامعة قطر، (د.ت).**

رابعاً: الرسائل والأطاريح

- **أبو سيخل، محمد إسماعيل، الأبعاد التربوية لسنة الابتلاء في ضوء الفكر الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٧م.**
- **قيلي، حسن سلمان، السنن التاريخية في القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه، جامعة الخرطوم، ٢٠٠٨م.**
- **كيلاني، صونية، مساهمة في الأداء بتطبيق الإدارة الاستراتيجية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة محمد خيضر، الجزائر، ٢٠٠٧م.**

خامساً: المراجع الإلكترونية

- **الأحمدي، عمر نايف، "مواصفات الاستراتيجية الجيدة في التدريس"، متاح على: www.manhal.net**
- **الركابي، إياد، "السنن التاريخية في القرآن المجيد"، متاح على: www.alshaikhalrekabi.com.**
- **زكي، رمضان خميس، "مفهوم السنن الربانية: دراسة في ضوء القرآن الكريم"، متاح على: www.alukah.net**
- **اليعقوبي، الشيخ محمد، "سنة الاستدراج"، متاح على:**

- www.yaqoobi.com

فهرس المحتويات

- **المقدمة**
- **الفصل الأول: حركية السنن التاريخية وميادينها التطبيقية.**
  - **المبحث الأول: مفهوم السنن التاريخية ودلالاتها الفكرية.**
  - **المبحث الثاني: ثبات السنن التاريخية وحتميتها التطبيقية.**
  - **المبحث الثالث: حركية السنن التاريخية وحيويتها.**
- **الفصل الثاني: تجليات السنن التاريخية في البناء الاستراتيجي.**
  - **المبحث الأول: مفهوم السنن القرآنية ومرتكزاته الفكرية.**
  - **المبحث الثاني: الثبات والاطراد بين السنن التاريخية وبناء الاستراتيجيات.**
  - **المبحث الثالث: تجليات معايير التقنين الفكري للسنن في البناء الاستراتيجي.**
  - **المبحث الرابع: آثار ومعطيات تجلي السنن في بناء الاستراتيجية.**
- **الفصل الثالث: بناء السنن التاريخية لاستراتيجيات المواجهة.**

- المبحث الأول: ارتكاز استراتيجية المواجهة على القواعد السننية.
- المبحث الثاني: المحددات والمحفزات القرآنية لجريان السنن وتوظيفها في المواجهة الفكرية.
- المبحث الثالث: التوظيف التعبوي للسنن في مواجهة الإرهاب.

- الفصل الرابع: تنمية السنن التاريخية لاستراتيجيات التكامل في إدارة الأزمات.
  - المبحث الأول: الموازنة بين قوانين المواجهة واستحقاق التكامل.
  - المبحث الثاني: مرحلية تشخيص الأزمة وعلاجها في تكامل السنن.
  - المبحث الثالث: تنمية الإيمان بالرعاية الإلهية في التصدي للأزمات.
- الفصل الخامس: بناء السنن التاريخية لاستراتيجيات التكامل المعرفي.
  - المبحث الأول: الإطار التاريخي للإسراء والمعراج ومعطياته الفكرية.
    - المنطق العقلي في إثبات الإطار التاريخي.

- الفلسفة السببية للإسراء والمعراج.
- المبحث الثاني: إيحاءات توجيه الحادثة بمدلولات فكرية إثباتية للعقائد والمفاهيم الدينية.
- المبحث الثالث: إيحاءات توجيه الحادثة لخدمة الجامعات والمنطق العلمي.

- الفصل السادس: تنمية السنن التاريخية للمعايير القيمية في بناء الاستراتيجيات.
  - المبحث الأول: ملامح السنن ومداها التطبيقي.
  - المبحث الثاني: معايير نهج البلاغة القيمية في تأصيل الاستراتيجيات التي تحكمها السنن.
    - أولاً: شرائط السنن التطبيقية ومحدداتها.
    - ثانياً: ميدان السنن التاريخية التطبيقي (سنة الابتلاء، التمكين، الاستدراج، التدافع، التداول).